

الامبراطورية الإسلامية والأماكن المقدسة

تأليف

الدكتور محمد حسين هيكمل

دار الصلال

تقديم

بقلم الأستاذ أحمد محمد حسين هيكل

تجتمع بين دفتى هذا الكتاب مباحث فى موضوعين أساسيين : أولهما نظام الحكم فى الاسلام ، وثانيهما الأماكن المقدسة فى الشرق الأوسط كتب والدى الدكتور هيكل هذه المباحث وأذاعها حوالى سنة ١٩٤٢ ، ثم ظلت منذ ذلك الحين مطوية بين أوراقه الى أن اختاره الله الى جواره الكريم . وهو لم يفكر فى جمعها ونشرها ، كما لم يفكر فى جمع أو نشر أى من مقالاته ومباحثه العديدة ، اللهم الا النذر القليل منها ، مما ظهر فى كتابى : « ولدى » و « ثورة الأدب »

ولعل عزوفه عن جمع هذه المباحث والفصول ، يرجع الى انصرافه فترة طويلة الى شئون السياسة انصرافا شغل وقته كله ، والى أن سمة هذا العصر كانت الى عهد قريب جدا هى الجهد فى الكتابة والتأليف لا جمع ما سبق أن كتب أو نشر من مباحث ومقالات

يتصل موضوع هذه الفصول اتصالا مباشرا بمرحلة فكرية رئيسية فى حياة الدكتور هيكل : تلك مرحلة دراساته الاسلامية التى احتوتها كتبه « حياة محمد » و « فى منزل الوحى » و « الصديق أبو بكر » و « الفاروق عمر » التى ظهرت جميعا فى الفترة ما بين سنة ١٩٣٥ وسنة ١٩٤٥

وقد بين هذا الكتاب بجلاء ، فى الجزء الخاص بالمبادئ العامة لنظام الحكم ، ان نظام الحكم الذى يتفق مع مقررات الاسلام هو النظام الذى تكفل فى ظله الحريات ويكون أساسه رضا المحكوم عن الحاكم وحق المحكوم فى مراقبة الحاكم ومحاسبته . وقد دعا الاسلام الناس ، بل فرض عليهم ، أن يعملوا مخلصين لاقرار هذه المبادئ الأساسية وصيانتها من كل عبث بها أو مصادرة لها ، وجعل ممارستهم لهذه الحريات والحقوق الطبيعية بعض ما يسأل الناس عنه أمام الله ويحاسبون أدق الحساب على اهماله

وقد تناول الجزء الثانى فكرتى الاشتراكية والديمقراطية فى الاسلام . وقد خلص الدكتور هيكل الى أن الاشتراكية الاسلامية ، هى التى تقوم بالنفس على انها من فرائض الايمان . فالاسلام اذ قرر أن لا اكراه فى الدين ، فهو قد أقر ذلك أيضا ، بل من باب أولى ، فى نظم حياتنا جميعا وفى الجزء الثالث ، تناول الدكتور هيكل ، بالبحث ، المبادئ الرئيسية للحرية الشخصية التى قامت على أساسها مبادئ التنظيم الدولى فى أعقاب الحرب العالمية الثانية ، مبينا ما بين هذه المبادئ وبين مقررات الاسلام من صلة تقرب أو تباعد بينهما ، وما يرتبه قيام هذه الصلة على عاتق الأمم الاسلامية من المسؤوليات فى المجتمع الدولى المعاصر

ثم ينتقل بنا الكتاب الى جزئه الأخير ، الذى يكاد يستقل موضوعه عن الأجزاء السابقة .. فهو يعرض للأماكن المقدسة فى الشرق الأوسط عرضا تاريخيا أولا ، ثم يصف هذه الأماكن وأثرها الروحى فى حياة العالم ، متنقلا بك من مكة الى المدينة الى بيت لحم وبيت المقدس فى فلسطين مستقرا عيسى عليه السلام وموئل موسى كليم الله

ترك الدكتور هيكل — كما ترك بعض معاصريه من رواد نهضتنا الفكرية الحديثة — جانبا كبيرا من آثاره السياسية والأدبية اما مخطوطا لم ينشر ، واما متناثرا فى المجلات والصحف التى ظهرت خلال نصف القرن الماضى ومن العسير على من يريد أن يقف على هذه الفترة من حياتنا الفكرية دارسا أو مؤرخا ، ألا يحسب لهذا القدر حسابه فى دراسته أو تأريخه ، ومن الواجب علينا أن نعمل ما استطعنا ، على نشر هذا التراث على الناس ليقوم حق قيمته ، ولتكون صورة هذا العصر أكثر اكتمالا أمام من يتبغى دراستها أو التأريخ لها

وهذا الكتاب هو فاتحة الطريق فى سبيل نشر آثار الدكتور هيكل التى كتبها ثم لم تنشر قط ، كتأريخه للقسم الأول من خلافة عثمان ، وبعض فصول الجزء الثالث من مذكراته فى السياسة المصرية وغيرها ، أو التى نشرت فى الصحف والمجلات ، الى ما قبل وفاته بأيام

الامبراطورية الإسلامية

-- ١ --

أسباب قوة الامبراطورية الإسلامية

- * قيام الامبراطورية الإسلامية حادث فذ
- * كيف استقرت الامبراطورية الإسلامية
- * رسالة الحرية والاخاء والمساواة
- * أسباب تدهور الامبراطورية الإسلامية

حادث فذ

قيام الامبراطورية الاسلامية حادث فذ في تاريخ الانسانية .. فقد بدأ الغزو العربى للشام والعراق سنة خمس وثلاثين وستمائة لميلاد السيد المسيح . وبعد خمس عشرة سنة من هذا التاريخ ، كانت الامبراطورية الاسلامية قد اشتملت على فارس ومصر وشمال افريقيا .. وامتدت الى حدود الهند وتاخمت الصين . وقيام امبراطورية بهذه السعة ، فى هذا الزمن القصير ، معجزة لذاته . لكن من حوادث التاريخ ما يشبه هذه المعجزة ..

وحسبنا أن نشير الى حروب الاسكندر والى حروب المغول .. امتدت حروب الاسكندر مشرقة من مقدونيا الى الهند وتناولت مصر ، وامتدت حروب المغول غربا من قلب الصين الى أوروبا . لكن حروب الاسكندر وحروب المغول ، لما تكند تنتهى حتى تنأثر عقد الامبراطورية التى نشأت سلطاتها ، وعادت الدول التى انتظمها الغزاة الى نظامها الأول ..

أما الامبراطورية الاسلامية التى مدت لواءها فى هذا الزمن القصير ، على هذا الجانب الكبير من العالم ، فقد استقرت قرونا امتدت أثناءها الى الأندلس ، وانتشرت فى الهند ، وأظلت جانبا من الصين . وهى الى ذلك ، قد أقامت حضارة سادت شئون العالم كل هذه القرون ، فلما آن للأمبراطورية الاسلامية أن تنحل بقيت هذه الحضارة تناضل عن نفسها ، وهى اليوم تبعث من جديد

هذه هى المعجزة حقا !.. وقد حاول كثيرون تأويلها والتماس أسبابها ، ولما يبلغوا من ذلك غاية يطمئن الباحث المنصف اليها كل الاطمئنان . فاذا صح أن كانت عبقرية الاسكندر الحربية سبب فتوحه العظيمة ، وأن تنسب فتوح جانكيزخان ونابليون الى مثل هذه العبقرية ، فمن العسير أن ينسب قيام الامبراطورية الاسلامية الى عبقرية حربية من هذا القبيل ..

النصر من عند الله

واذا جاز لنا أن نقرن اسم قائد نابغة ، كخالد بن الوليد ، الى أسماء الاسكندر وجانكيزخان ونابليون ، فيجب ألا ننسى ان هؤلاء بلغت بهم عبقريتهم أن أصبحوا ملوكا وان صار اليهم وحدهم الأمر كله .. على حين بقى خالد بن الوليد ، وعمرو بن العاص ، وغيرهما من قواد المسلمين تحت سلطان الخلفاء أمراء المؤمنين .. بل لقد عزل عمر بن الخطاب خالد بن الوليد ، وكان من أسباب عزله اياه انه خشى أن يظن الناس أن المسلمين لا ينتصرون الا بخالد ، وليس خالد فى رأى عمر الا رجلا من المسلمين شأنه شأن غيره من القواد . وانما النصر من عند الله يؤتية من يشاء ..

لابد اذن أن نلتمس لقيام الامبراطورية الاسلامية ولاستقرارها ، سببا غير السبب الذى أقام امبراطورية الاسكندر وغير الاسكندر من عباقرة الحرب .. وأن نلتمس هذا السبب - أو هذه الأسباب ان شئت تعبيراً أدق - عن طريق التحليل الاجتماعى لحياة العصر الذى قامت الامبراطورية الاسلامية فيه ، والعوامل الظاهرة التى أدت الى قيام هذه الامبراطورية واستقرارها

بعث النبى ودعوته

يذكر المؤرخون المسلمون أن بعث النبى العربى ودعوته ، هما اللذان أقاما هذه الامبراطورية . وهذا تعليل صحيح لا ريب .. فقيام النبى العربى بالدعوة الى الاسلام ، وانضواء جزيرة العرب كلها الى لوائه ، ذلك هو الذى دفع العرب الى ما وراء حدودهم ، وجعلهم يغنمون العراق والشام ويغزون الامبراطوريتين الرومية والفارسية .. لكن التاريخ يحدثنا بأن دعوة النبى العربى حوربت فى آخر حياته ، وبعد وفاته ، بأشد مما حوربت أول بعثه وفى مستهل دعوته . كان قومه من قريش هم الذين خاصموه وقاوموه فى السنوات الأولى من بعثه ودعوته .. وقد تغلب عليهم بالصبر والثبات ، فلما نفذ صبره وخاف على الذين اتبعوه ، هاجر الى يثرب ، ثم

حارب خصومه حتى دان شبه الجزيرة لدعوته
فلما انتشر الاسلام في ربوع البلاد العربية كلها نشأت دعوة تقاومه ،
لم تلبث أن تمخضت عن حركة الردة التي استفحلت في عهد أبي بكر .
ولقد تردد غير واحد من كبار الصحابة بادية الرأي في مجازاة الصديق
حين دعا لمحاربة المرتدين . فلو أن الدعوة الى الاعفاء من الزكاة استفحلت
لاستفحلت معها فكرة الردة ، ولخيف على الدين الناشئ ألا يستقر في
النفوس ، فلا يكون الايمان به قويا الى الحد الذي يقيم أمبراطورية
عظيمة ..

فلما انتصر أبو بكر في حروب الردة ، وجمع شبه الجزيرة تحت لواء
واحد ، وأقر وحدتها السياسية الى جانب وحدتها الدينية .. آن للعرب
أن يندفعوا لغزو العراق وغزو الشام ، وكان هذا أول التمهيد للفتح
والأمبراطورية

ولم يكن هذا التمهيد مأمون العاقبة .. فقد انقضت خلافة أبي بكر ،
وانقضت سنة أو نحوها من خلافة عمر بن الخطاب ، والعرب مقيمون على
تخوم العراق وعلى تخوم الشام ، يتخطون هذه التخوم حيناً ، ويردون
عنها أحياناً . ولو أن القوة التي وقفت أمامهم ، كان في مقدورها أن تصمد
لهم لتغير وجه التاريخ ..

ويذهب بعضهم الى أن الأمر لو أسند الى خليفة غير عمر ، لتغير وجه
التاريخ كذلك .. لكن قوة الروم وقوة الفرس تضععت أمام سياسة
عمر وبأس الغزاة ، فاندفع هؤلاء يتخطون العراق الى فارس ، ويتخطون
الشام الى مصر ، ولا يحاولون أن يكرهوا الناس من أهل هذه البلاد
حتى يكونوا مسلمين

ريح الثورة

وانقضت خلافة عمر ، وانقضى الشطر الأول من خلافة عثمان ، ثم بدأت
ريح الثورة تهب في أرجاء الامبراطورية الناشئة .. في مصر ، وفي العراق ،

وتنتهى الى قتل الخليفة الشيخ عثمان بن عفان . فلما وقع هذا الحادث الأليم ، انطلقا لهب الثورة حيناً ، ليندلع بعد ذلك أشد ما يكون أواراً .. فتكون الحرب الداخلية بين على ومعاوية ، أى بين بنى هاشم وبنى أمية ، وتظل أجزاء الامبراطورية فى الشام والعراق ومصر ، وفى شبه الجزيرة نفسها ، فى اضطراب أيما اضطراب

أين كان الروم ، وأين كان الفرس اذ ذاك ، وكيف بقيت الامبراطورية الاسلامية بعد ذلك ثابتة القواعد وطيدة الأركان .. فلم يفكر قياصرة بيزنطة ، ولا فكر وارثو الأكاسرة فى مهاجمتها وتقويض أركانها ؟ !

لم يقف الأمر عند عجز الروم والفرس دون انتهاز هذه الحروب الداخلية التى شتتت العرب شيعاً وأحزاباً ، بل انتهت هذه الحروب بفوز بنى أمية بالملك .. ثم قيامهم بعد ذلك بتنظيم الامبراطورية من جديد ، وكأن لم تقع حرب أهلية ، وكأن مصر والشام والعراق وفارس قد أصبح أهلهم عرباً متعاونين على تقوية هذه الامبراطورية وتدعيم بنائها . ثم امتدت الامبراطورية بعد ذلك ، واشتملت على أمم وولايات لم تدخل حظيرتها فى عهد عمر ولا فى عهد عثمان

وشبت الثورة بعد ذلك بين الأمويين والعباسيين ، وانتهت بظفر الأخيرين بالملك ، ثم لم تجن الحروب الداخلية على الامبراطورية ، بل ازدادت هذه الامبراطورية قوة حتى آن لعوامل الانحلال أن تتسرب اليها انقضت بين التمهيد للامبراطورية وبدء انحلالها قرون عدة ، نشر أبناء الامبراطورية أثناءها حضارة جديدة ، أظلت العالم ووجهت مصائره .. ثم استجنت بعد انحلال الامبراطورية منتظرة أن تبعث من جديد

رسالة الحرية والمساواة

كيف استقرت الامبراطورية كل هذه القرون ؟ .. وما بالها لم تهب عليها ريح الفناء التى هبت على امبراطورية الاسكندر وعلى امبراطورية المغول ؟ ليس تفصيل هذه الأسباب مستطاعاً فى مثل موقفى هذا .. لكنى

أستطيع أن أجمل هذه الأسباب في سبب واحد .. ذلك ان العرب لم يندفعوا الى الغزو ، تحركهم مطامع مادية صرفة ، بل اندفعوا اليه مؤمنين بأن القدر ألقى عليهم رسالة وأوجب عليهم تبليغها للناس كافة لخير الانسانية في مشارق الأرض ومغاربها . وهذا الايمان هو الذى أقام الامبراطورية ، وهو الذى أبقاها ما بقيت من القرون . فلما اضمحل هذا الايمان ، بدأ الانحلال يدب في أرجاء الامبراطورية .. يمزقها وينتهى بها الى مثل ما انتهت اليه الامبراطورية البيزنطية والامبراطورية الفارسية

لم تكن هذه الرسالة ، التى آمن العرب بأن القدر ألقى عليهم تبليغها للناس ، شيئاً آخر غير رسالة الحرية والأخاء والمساواة فى أسمى صورة يدركها العقل لمعانى الحرية والأخاء والمساواة .. فانه الناس اله واحد .. والناس متساوون أمام هذا الاله الواحد ، لا فرق بين عربى ولا عجمى الا بالتقوى . وهم اخوة فى هذه المساواة ، يشد بعضهم ازر بعض . وهم ، مع هذا الاخاء وهذه المساواة ، أحرار لا سلطان عليهم لغير الله . أما وهذه المبادئ مقدسة .. فكل نظام يوضع للجماعة يجب أن يقوم على أساسها ، فلا يكون لخليفة المسلمين وأمير المؤمنين امتياز على أحد من رعاياه ، بل ان عليه لواجبا أن يخدم هذه المبادئ المقدسة أو يكون قد خائف ما أمر الله به

المبادئ السامية سر القوة

انتشرت هذه المبادئ فى شبه جزيرة العرب لعهد النبى العربى ، فحطمت فى النفس العربية تقاليد البالية التى أورثتها اياها عبادة الأصنام .. وردت اليها هذه الحرية الروحية العزيزة على نفس العربى ، فاندفع الى الشام والى العراق مؤمنا بها . وهناك - على ضفاف دجلة والفرات ، وعلى ضفاف بردى ، وبين جبال لبنان الرقيقة - لقي العرب نظاما اجتماعيا ونظاما سياسيا بلغا من الهرم والانحلال مبلغا صرف الناس عن التحمس لهما والدفاع عنهما . لذلك لم تحرك فرق الجند من الفرس

ومن الروم فكرة تدافع عنها في قتالها العرب
بل كانت هذه القوات تذهب طوعا لأمر السادة الحاكمين .. وقل ان
حفزت الطاعة للحاكم ، وحدها ، الى تضحية وان قلت !.. ما بالك
والجندى يسير الى ميدان القتال ليضحى بحياته ، وليترك من بعده أهله
وأبناءه بين أيمن تندبه ويتيم يتلفت يمنة ويسرة ، فلا يجد ما هو في أشد
الحاجة اليه من حنان ورحمة !

فلما استقر المسلمون في البلاد التي فتحوها ، أقروا هذه المبادئ
السامية بين أهلها.. وجعلوا التسامح الدينى أساس حكمهم حيثما نزلوا ..
فلم يكرهوا أحدا من أهل البلاد المفتوحة على الاسلام . وأباحوا للناس
من ألوان الحرية ما كان معروفا في ذلك العهد .. والحرية العقلية ، وحرية
القول ، في مقدمة ما أباحوا . واحترموا شعائر الجميع وعقائدهم ، وجعلوا
العدل بين المسلم وغير المسلم أساس الحكم

فلما رأى الناس ذلك ، ورأوا المسلمين أنفسهم يستمتعون من ألوان
الحرية العقلية والحرية العامة بما لم يكن له وجود من قبل في بلاد الروم
ولا في بلاد العرب .. كان ذلك داعيا لهم الى الدخول في الدين الجديد ،
والتمتع بما قرره من مبادئ الحرية والاخاء والمساواة

وقد كان للحرية العقلية ولحرية الرأى من القدسية ما يشهد به اجتهاد
المشرعين والفقهاء في القرون الأولى ، وما يدل عليه ما نقل من كتب
الفلسفة اليونانية ، وما أخذ به المفكرون والفلاسفة الاسلاميون من
مبادئ هذه الفلسفة اليونانية وما أضافوه اليها من عندهم

اسباب التدهور

ظلت الامبراطورية الاسلامية قائمة قوية ما جعلت هذه الرسالة الانسانية
السامية غايتها . ولقد كانت موشكة أن تنشىء على أساس من هذه
الرسالة ، دولة عالمية تنتظم أمم ذلك العهد جميعا .. لكن دورة الفلك
دارت ، فاذا الحرية انقلبت جمودا ، واذا الاخاء والمساواة يذبلان أمام

سلطان الباطشين من الحكام المستبدين
 عند ذلك بدأ تدهور الامبراطورية وانحلالها ..
 ولم يكن ذلك عجباً والحياة الانسانية فكرة ورسالة ، وليست أداة
 يوجهها من شاء الى ما شاء . والحياة الانسانية القائمة على الفكرة مثمرة
 دائماً ، موجهة أبنائها جميعاً الى ألوان من النشاط تزيدها قوة ، وتدفع
 اليها كل يوم حيوية جديدة
 فاذا انطفأ نور الفكرة لم يبق للرسالة وجود ، وآن لهذه الحياة
 الانسانية أن يتوارى كل ما فيها من ضياء ، فلا يبقى منها الا المظهر
 المادى ، أو المظهر الحيوانى للوجود
 ولا قيام لأمبراطورية على أساس من المادة ولا من المظهر الحيوانى ..
 ولذلك انحلت الامبراطورية الاسلامية ، لأن الرسالة التى آمن بها
 المسلمون الأولون توارت وراء الحجب
 أفقدر لها أن تبعث من جديد ؟.. ذلك ما أعتقد .. وعلمه عند ربى

نظام الحكم في الإسلام

- * طبيعة الحكم الاسلامى وفكرته
- * المبادئ الاساسية فى الحكم الاسلامى
- * تطور نظام الحكم فى الاسلام
- * الحكومة الاسلامية والتشريع والقانون
- * الاسلام ومبادئ الحضارة الانسانية

نظام الحكم

الكلام فى نظام الحكم فى أمة من الأمم ، لا يقف عند الفكرة العامة من الحكم .. فردى هو أم نيابى ، ملكى أم جمهورى ، ديمقراطى أم ديكتاتورى .. بل هو يتناول أمورا كثيرة تتصل بالفكرة العامة للحكم من قريب أو بعيد ، يتناول النظام الاقتصادى ، والنظام الخلقى ، والنظام الاجتماعى ، وألوانا أخرى من النظم خاصة بالسلم والحرب ، بالدين والعلم .. وبغير ذلك من تفاصيل لا يتم تصور نظام الحكم الا بتصورها كاملة فى حال حركتها ، وفى حال استقرارها

فانجلترا ديمقراطية ، وأمريكا ديمقراطية .. لكن صورة الحكم فى انجلترا ، تختلف عنها فى أمريكا .. انجلترا ملكية ، وأمريكا جمهورية .. انجلترا برلمانية النظم ، وأمريكا نيابية النظم . العلاقات بين الحكومة المركزية والحكومات المحلية فى انجلترا ، غير العلاقات بين الحكومة المركزية فى أمريكا وحكومات الولايات .. القيم الخلقية ليست واحدة فى الدولتين وهذا التباين طبيعى .. مرجعه الى تاريخ الأمة ، والى الأطوار التى مرت بها ، والأحداث التى تعاقبت عليها

وتستطيع أن تقول مثل ذلك عن الدولة الواحدة فى أطوار حياتها المختلفة .. فالفكرة العامة فى النظام الانجليزى اليوم هى بعينها الفكرة العامة فى هذا النظام منذ قرون . لكن ، ما أكبر الفرق بين آثار النظام الانجليزى اليوم وآثاره فى العهد الفكتورى . وما أكبر الفرق بين آثاره فى العهدين وآثاره فى القرن الثامن عشر . ولا شبهة ان هذا النظام سيتطور بعد حين تطورا عظيما مع بقاء فكرته العامة قائمة ، وسيكون التطور أكثر وضوحا فى نواحيه الاقتصادية والاجتماعية

أطوار شتى

وهذا الكلام عن تطور صورة الحكم يصدق كل الصديق على النظام الاسلامى ، فالفكرة العامة فى هذا النظام واحدة .. لكن آثار هذه الفكرة تطورت على القرون أطوارا شتى . وبدأت فى صور اختلفت باختلاف البيئة التى حلت بها ، والأحداث التى وقعت أثناءها ، والثورات التى كانت الامبراطورية الاسلامية فى العصور المختلفة مسرحها . فاذا أردنا أن نصور نظام الحكم فى الاسلام تصويرا يقربه من أذهان أهل هذا الجيل ، وجب علينا أن نقف وقفات سريعة عند طائفة من هذه الأطوار

ولعل وقفاتنا هذه تجلو لنا صورة تنمشى فيها الوحدة المستمدة من الحياة الاسلامية ، وان غشيت هذه الوحدة فى كثير من الأحيان مظاهر تجعل من المتعذر محاولة اثباتها بمقارنة الحكم الاسلامى فى عهد الخلفاء الراشدين وفى عهد آل عثمان مثلا

ويجب أن تكون وقفتنا الأولى عند عهد النبى عليه السلام وخلفائه الأولين . وأول ما يلاحظ أن العهد المكى من حياة رسول الله لم يتعرض للدولة ، ولم يجعلها غرضا من أغراضه .. فقد اقتضت السور المكية على الدعوة الى التوحيد والى الايمان بالله وملائكته ورسله واليوم الآخر ، والى السمو بالنفس الانسانية عن الانخداع بالدنيا ومتاعها الغرور، لتكون بهذا السمو أقرب الى الله وأدنى الى رحمته . أما العهد المدنى ، فقد تقررت فيه القواعد الأساسية لحياة الأسرة والميراث وللتجارة وللبيع ، ولكثير مما فصله الفقهاء من بعد تطبيقا لهذه القواعد الأساسية ، واستنباطا من حياة الجماعة التى كانوا يعيشون فيها

على أن هذه القواعد الأساسية لشئون حياتنا الاجتماعية والاقتصادية والخلقية ، لم تتناول أى تفصيل فى الأساس الذى تقوم عليه الدولة ، ولم تتعرض لنظام الحكم تعرضا مباشرا . والآيتان الكريمتان : « وشاورهم فى

الأمر» ، و « أمرهم شورى بينهم » لم تنزلا في مناسبات تتصل بنظام الحكم ، وهما بعد لا تصوران نظام الحكم تصويرا تفصيليا

فهل يؤثر الاسلام النظام الجمهورى على النظام الملكى ؟.. لقد بويج الخلفاء الراشدون في العهد الأول للاسلام على قاعدة من الشورى ليست هى الانتخاب المباشر ، وليس بينها وبين النظام البرلمانى أو النظام النيابى شبه واضح . وأنت تستطيع مع ذلك ، أن ترى في بيعة الخليفة بعد تشاور أهل الرأى ما يجعله أدنى الى رئيس جمهورية منه الى ملك . أما الدول الأموية والعباسية ، وما تلاهما ، فقد قامت على أساس ملكى لا يمت للمعنى الجمهورى بصلة أو نسب . أفنقول مع ذلك بأن أحد النظامين اسلامى والآخر غير اسلامى ؟.. من العسير أن نقرر ذلك بعد أن انعقد اجماع المسلمين خلال القرون على خلافه

هذا ، ثم ان فكرة الحكم لم تكن مفصلة القواعد في عهد النبى بعد الهجرة الى المدينة .. وهو صلى الله عليه وسلم ، لم يغير شيئا من النظام العربى في الحكم على ما بينه في الأساس الذى كان يقوم عليه في قبائل البادية ، وفي حضر الحجاز واليمن من تباين واضح .. فقد ترك الرسول هذه الشئون يوجهها الناس في كل أمة كما اعتادوا أن يوجهوها .. مكتفيا منهم بأن يقبلوا الدين الذى جاء به من عند الله

وكان اذا سئل في شىء من ذلك أجاب ، أأنتم أعلم بأمر دنياكم . فلما استقر سلطان المسلمين بالمدينة ، وآل الأمر فيها الى النبى العربى ، لم يغير صورة الحكم عما كانت عليه . وكل ما حدث ان ما كان ينزل به الوحي من قواعد تخالف ما ألف العرب في حياتهم ، كان يوجه المسلمين وجهتهم الجديدة في الحياة ، دون أن يغير المبدأ الأساسى للحكم العربى

كان هذا الحكم العربى يختلف من البادية الى الحضر ، ومن حضر الشمال الى حضر الجنوب . وكان اختلافه يرجع الى اعتبارات اقليمية ، وتاريخية .. تأثرت بها كل بيئة تأثرا يختلف عما حدث في بيئة أخرى .. كانت مدن الحجاز تستقل كل واحدة منها بنفسها ، ولا تعرف لغيرها

سلطانا عليها .. كذلك كان شأن مكة وشأن المدينة ، وشأن الطائف . كان بكل واحدة من هذه المدن استقلالها ونظامها ، وكان الحكم فيها متأثرا بالعوامل التاريخية التي تعاقبت عليها ، فكانت السلطة في المدينة مثلا موضع تنازع دائم بين الأوس والخزرج واليهود

وظل الأمر على ذلك الى أن استقرت كلمة الاسلام ، وعاد الأمر الى النبي العربي . أما مكة ، فقد تقاسمت الأسر الكبيرة فيها شئونها العامة .. كانت أمور الكعبة لبنى هاشم ، وكانت أمور الحرب لبنى مخزوم . وكانت الديات والمغارم لبنى تميم وهلم جرا . ولم يتغير الأمر بمكة بعد فتح النبي اياها ، بل ظلت الكلمة فيها لهذه الأسر الكبيرة

وكان الخلاف في مبدأ الحكم بين شمال شبه الجزيرة وجنوبها ، أشد منه بين مدن الحجاز .. كانت اليمن قد اندمجت في وحدة سياسية ، قبل البعث بزمن غير قليل . وترجع وحدة اليمن السياسية الى اعتبارات اقتصادية وأخرى تاريخية واضحة الأثر .. فلم تكن بين مدن الحجاز روابط اقتصادية تقتضى خضوعها لنظام مشترك كنظام اليمن ، أما في اليمن ، فقد قضت المصالح الاقتصادية المشتركة ، كقيام سد مأرب ، بأن توضع قواعد عامة للحكم يحترمها أهل البيئة جميعا . هذا ، ثم ان اليمن خضعت في عهود كثيرة لأطوار سياسية لم يعرفها الحجاز .. عدت الحبشة ، وعدت فارس ، على استقلال اليمن .. وأقامت فيها حاكما تخضع جميع أنحائها لسلطانها . كان طبيعيا ازاء هذه الاعتبارات أن يقوم الحكم في أنحاء اليمن كلها على قاعدة ، معترف بها من أهلها جميعا ، ينفذها الحاكم بقوة القانون ان لم ينفذها الناس عن رضا واختيار

ونظام القبائل في البادية ، لم يكن يتفق ونظام الحضر في اليمن أو في الحجاز بل كان الغزو والسلب تحت امرة رئيس القبيلة أساس الحياة عند البدو . وكان رئيس القبيلة هو القاضى ، وهو القائد الأعلى ، وهو الذى يصرف شئون القبيلة ما جل منها وما دق . وطبيعى أن يستند مثل هذا النظام الى شخصية رئيس القبيلة وأن يتأثر بمنطقه وحكمته

المبادئ الأساسية في الحكم

لم يغير النبي العربي شيئاً من هذه النظم المتباينة في الحجاز ولم يضع قواعد ثابتة لنظام الحكم الاسلامى .. وكل الذى صنعه ، أنه كان يوفد من عنده الى القبائل أو المدن التى تعتنق الاسلام من يفقه الناس فى دينهم ، ويعلمهم قواعده ، ويحملهم بذلك على أن ينظموا سلوكهم على موجب هذه القواعد

على أن القواعد الجديدة التى جاء بها الاسلام لتنظيم السلوك والمعاملات ، كانت مقدمة لتنظيم سياسى لامفر من استقراره .. وقد اطمأنت قواعده بالفعل شيئاً فشيئاً ، متأثرة بالبيئة وأحداث التاريخ . وفى مقدمة القواعد التى تأثر بها النظام السياسى للإسلام الايمان بالله لا اله الا هو ، وبأنه وحده تجب له العبادة . فقد أدى هذا الايمان الى تقرير قواعد المساواة والاخاء والحرية .. فالمؤمنون جميعاً سواسية أمام الله .. تجرى عليهم جميعاً سننه بالقسط لا تفرق بين أحدهم وصاحبه ، ولا فضل لعربى منهم على عجمى الا بالتقوى . وهم لذلك انما يجوزون بأعمالهم ، ان خيراً فخير ، وان شراً فشر . والناس اخوان يجب أن تقوم المحبة بينهم مقام البأس ، بل مقام القانون .. فلا يكمل ايمان أحدهم حتى يجب لأخيه ما يجب لنفسه .. والناس أحرار فى كل شئ ، أحرار فى العقيدة نفسها .. فلا اكراه فى الدين ، ولا ايمان الا بعد اقتناع بالحجة والموعظة الحسنة . كانت هذه هى المبادئ الأساسية للحكم فى العهد الاسلامى الأول .. وكانت لذلك واضحة الأثر فى تطور نظام الحكم فى بلاد العرب تطورا ، بدا للعيان على أثر حروب الردة . وقد أكملت القواعد الاقتصادية والاجتماعية هذه المبادئ ، وأسرعت بالنظام الاسلامى الى أن تتضح صورته ، وأن يستقر .. على أن تطوره ظل متصلاً على العصور ، لم يقتصر تأثيره على العامل الاسلامى الذى نشير الآن اليه ، بل تأثر أحيانا

بالبيئة وأحداث التاريخ تأثرا بعيدا عن القواعد الاسلامية ، بل مناقضا لهذه القواعد فى بعض الأحيان مناقضة صريحة

وقد بدأت هذه العوامل الأجنبية يتضح أثرها منذ العهد الأول للإسلام .. وكانت أولى المظاهر التى بدت بهذه العوامل الأجنبية ما كان من قتل أبى لؤلؤة ، غلام المغيرة ، عمر بن الخطاب الخليفة الثانى ، ثم ما كان من مؤامرة انتهت الى قتل الخليفة الثالث عثمان بن عفان ، وما حدث بعد ذلك من ثورة شبت نارها وتلظت الحرب بسببها بين على ومعاوية .. فأبو لؤلؤة فارسى ، وكانت مصر ذات يد فى المؤامرة على عثمان . وكانت الشام تؤيد عليا . هذه العوامل الخارجية الآتية من فارس ومصر والشام هى التى نقلت النظام الإسلامى من الخلافة وامارة المؤمنين الى الملك الذى توارثه بنو أمية ، فبنو العباس ، فمن جاء بعدهم من الملوك فى أقطار العالم الإسلامى المختلفة

وهذه العوامل الخارجية هى التى رسمت الاطار الخارجى لصورة الحكم الإسلامى منذ العهد الأول .. فبعد أن كان هذا الاطار عربيا صرفا فى عهد النبى ، وفى عهد أبى بكر ، وبعد أن كانت البساطة العربية تطبعه ، حمل الفتح الإسلامى عمر بن الخطاب على انشاء الديوان ، ثم أدى امتداد الفتح الى تنظيم الحكومة الإسلامية فى حدود الدين الجديد ، على مثال الحكومات القائمة فى بلاد فارس وفى بلاد الروم

وكان لهذا التطور الأول أثره فى الحياة العامة ، وان لم يبعد بها عن الصورة العربية الى مثل ما حدث من بعد فى العهد العباسى والعهد الذى تلته . وظل هذا التطور يتصل من بعد ذلك على الأجيال ، وظل الفقهاء يستنبطون القواعد والأحكام من الكتاب والسنة والاجماع ، فيعاونون التطور بعلمهم ليلبغ غاية مداه

تطور نظام الحكم

لم يضع النبي العربي نظاما مفصلا للحكومة الاسلامية .. على أن ما جاء به من عند الله تنظيما لقواعد السلوك والمعاملات كان مقدمة لتنظيم سياسى لا مفر من استقراره . وقد بدأ هذا التنظيم السياسى تطوره البطيء من عهد النبي ، ثم كان تطوره أكثر وضوحا عقب حروب الردة . فلما اتسعت رقعة الفتح الاسلامى ، بدأت العوامل الخارجية تحدث أثرها فى هذا التطور . وكان أثر هذه العوامل بعيدا عن القواعد الاسلامية أحيانا ، مناقضا لها كل المناقضة أحيانا أخرى

وكانت النظم القائمة فى الروم وفى فارس هى التى تأثر بها نظام الحكم الاسلامى منذ أنشأ عمر الديوان ، ثم ازداد تأثرا بها فى عهد عثمان . فلما قامت الدولة الأموية ، واتخذت دمشق مقرا لها ، كان طبيعيا أن تزداد هذه العوامل أثرا فى تصوير الاطار الخارجى لنظام الحكم .. على أن الروح العربية ، ظلت سائدة الى حد كبير فى عهد بنى أمية ، لأن الذين كانوا يضطلعون بأعباء الحكم ومناصب الدولة الكبرى كانوا من العرب . فلما انتقل الأمر الى العباسيين ، بدأ الأثر الخارجى يبدو أكثر وضوحا ، لأن الفرس كانوا أصحاب تفوذ كبير فى شئون الدولة

هذا ، ثم ان العهد العباسى امتاز بنقل الفلسفة اليونانية الى اللغة العربية .. لذا بدأت نظريات هذه الفلسفة تعمل عملها فى تطوير الحياة العامة للدولة الاسلامية . صحيح ان الفقهاء والمحدثين ، ومن اليهم ، عتوا فى ذلك العهد باستتباط القواعد والأحكام من الكتاب والسنة ، أو مهدوا بذلك لوضع التشريع الاسلامى . لكن كثيرين من هؤلاء الفقهاء والمحدثين ، وكثيرين من الكتاب والمفكرين ، كانوا من غير العرب ، فكان طبيعيا أن تؤثر وراثتهم العقلية فى أحكامهم وفى منطقهم . ثم ان النظام الذى كان قائما فى فارس ، وفى بلاد الروم ، يجعل لولى الأمر سلطانا مطلقا ، فكان

من أثر ذلك أن تطورت الفكرة الأساسية في الحكم الى النقيض لما كانت عليه في أول العهد الاسلامي . ثم كان من أثره أن شاعت فكرة هذا الحكم المطلق متنقلة من أمير المؤمنين الى الحكام والولاة ، والى من دونهم من سائر من يتولون مناصبا من مناصب الدولة ذا أثر في توجيه حياة الناس ومنافعهم

فكرتان ! ..

لما بويج أبو بكر بالخلافة خطب الناس فقال : « لقد وليت عليكم ولست بخيركم ، فإن أحسنت فأعينوني ، وإن أسأت فقوموني .. أطيعوني ما أطيع الله فيكم ، فإن عصيته فلا طاعة لي عليكم » وهذا كلام صريح في أن الخليفة وكيل عن الأمة ، وإن للأمة وهي الأصيل أن تراقبه وأن تقومه ، وأن تطيعه في حدود توكيله . وكان عمر بن الخطاب يقول للناس : « من رأى منكم فيء اعوجاجا فليقومه » فيقول له أحد الناس : « والله يا عمر لو رأينا فيك اعوجاجا لقومناه بحد سيوفنا »

أما في العهد العباسي ، فكان أمير المؤمنين يخطب الناس بأنه ظل الله على الأرض ، وبأن الله وضع في يده مفاتيح خزائنه فيها .. فإن شاء أن يفتحها تفتحها !.. وإن شاء أن يغلقها أغلقها . وكانت نظرية الحق الالهي أو الحق المقدس للملوك نظرية معترفا بها منذ العهد العباسي ، كما اعترف بها بعد ذلك في أمم أوروبا المسيحية . وأنت ترى من ذلك مبلغ التناقض بين الفكرتين .. الفكرة العربية كما فهمها أبو بكر وعمر ، وهي التي تتفق مع ما نزل في القرآن على محمد « انما أنا بشر مثلكم » والفكرة التي أخذ بها ملوك بنى العباس من أنهم يستمدون سلطانهم من الله لا من الناس ، وانهم محاسبون أمام الله ، غير محاسبين أمام الناس

ليس عسيرا تفسير هذا الفارق بين الفكرتين .. فأبو بكر ، وعمر ، وعثمان ، كانوا أولياء على قومهم باختيار قومهم ومبايعتهم اياهم ، أما الملوك الذين جلسوا على عرش المملكة الاسلامية فكانوا يرون أنهم تسنموا هذه العروش بحق الفتح . أولئك اذا ولاهم الشعب فهم وكلاؤه ،

وهؤلاء غلبوا الشعب على أمره .. وتسلطوا بقوة البأس على رقابه ، فهم سادته وحكامه . وأهل الرأي الذين بايعوا أولئك كانوا من العرب الذين نزل الدين على رجل منهم فهم سواسية ، وأهل الرأي ممن حول هؤلاء كانوا حاشية وبطانة يقولون لصاحب السلطان سمعنا وأطعنا ، فهم تبع . وطبيعى أن يكون الشعب بعدهم تبعا لهم .. بذلك تطورت الفكرة العامة لنظام الحكم الاسلامى من تلك البيعة الحرة عن طوعية ورضا الى هذا السلطان المطلق الذى أظلم العالم الاسلامى خلال العصور منذ العهد الأموى

أثر التطور فى مبادئ الاسلام

هل أثر هذا التطور فى الفكرة العامة للحكم على المبادئ التى جاء بها الاسلام لتكون أساس حضارة العالم .. ذلك أمر لا ريب فيه .. خذ الرق مثلا ، كان الرق شائعا قبل الاسلام شيوعا فاحشا . فلما جاء الاسلام حذ منه ، وجعل الرقيق أسير الحرب الذى لا يفتدى ، أو لا يقبل فيه فداء . ومع ذلك فتح باب العتق على مصراعيه ، وجعل فك الرقبة مما يتقرب به المرء الى الله ثم جعل الرقيق فى مقام كريم .. على ان التطور الذى حدث فى أمر الحكم ، رد شئون الرقيق الى مثل ما كان عليه قبل الاسلام أو ما يقرب من ذلك ، فأصبح الرقيق تجارة رائجة ، ولم يقف الرق عند أسرى الحرب ، بل تعدى ذلك الى خطف الغلمان والفتيات ، واعتبر هذا الخطف غزوا

ليس الرقيق الا مثلا نسوقه للدلالة على الأثر الذى أدى اليه تطور الفكرة العامة للحكم فى أمر المبادئ السامية التى جاء بها الاسلام لتكون أساسا لحضارة العالم . ولو أننا أردنا أن نتقصى هذا الأثر فى حياة الجماعة ، لما وسعنا هذا المقام . لكننا نقرر أنه تناول الأسرة ونظامها ، وتناول الحرية العامة فى مختلف صورها ، وتناول الوجود الانسانى كله . لم تنتقر للمرأة حقوق فى حضارة العالم ما قرره لها الاسلام .. جعل

للنساء مثل الذى عليهن بالمعروف ، وجعل للرجال عليهن درجة مقابل ما ألقى على الرجال من أعباء أعفى النساء منها . المرأة المسلمة حرة حرية الرجل .. حرة في ذاتها ، حرة في معاملاتها .. يجب لها من احترام الرجل مثل ما يجب للرجل من احترامها . لا يملك الرجل من أمرها الا ما يوحيه هذا الاحترام وهذه الحرية ، في حدود مصلحة الأسرة ومصلحة الجماعة ومع ذلك لم يلبث هذا التطور الذى أحدثته العوامل الخارجية في الحياة الاسلامية أن ردها الى ما يقرب من مكانها عند الرومان وعند الفرس .. ضرب عليها الحجاب ، وحرمت أقدم حق لها .. حرمت حريتها في المتاع الشريف بالحياة . بذلك انقلبت نظرة الرجل اليها فسقطت عنها كرامة الانسان ، وصارت متاعا للرجل يلهو به ويتحكم فيه تحكم السيد . في الرقيق ، وتحكم أمير المؤمنين في رعيته . صارت المودة والرحمة اللتين ورد ذكرهما في القرآن ، على أنهما أساس الصلة بين الرجل والمرأة تفضيلاً من الرجل على أحد الضعيفين ، المرأة والرقيق . ووجد الفقهاء فيما وضع من الأحاديث سنداً يؤيدون به هذا التطور الذى جنى على الأسرة وعلى الأبناء وعلى سعادة الأمة الاسلامية وتقدمها

الحكم المطلق

ثم ماذا ؟ ! .. ثم نشأ عن هذا التطور ما كان أبعد أثراً في حياة العالم الاسلامي كله .. هذا الحكم المطلق الذى جعل لأمر المؤمنين ما كان لأمبراطور الروم ولعاهل الفرس من سلطان غير محدود .. أغرى كل حاكم في ولاية اسلامية بأن ينتقض على أمير المؤمنين كلما استطاع أن ينتقض عليه ، ليكون له بذلك حقوق أمير المؤمنين في هذا السلطان المطلق .. فاذا استطاع أمير المؤمنين من بعد أن ينكل بمنافسه وأن يقضى عليه فيها ، والا تنافس ذوو السلطان وأذاقوا الأمة ألواناً من التضحية لمجدهم الذاتى لا لمجد الأمة ، ولا لمجد الاسلام . بذلك عم الانتفاض أنحاء العالم الاسلامي ، وبدأ التدهور الذى انتهى اليه هذا التطور

وكان من أثر هذا التدهور ، أن زالت فكرة الامبراطورية الروحية التي تربط المسلمين جميعا بأصرة التقوى والايمان بالله وحده ، وانكار الخضوع لغير الله .. فصارت الامبراطورية الاسلامية في طور الامبراطوريات المتداعية الركن المهيضة الجناح . وكيف لأمة أو الامبراطورية أن تقاوم التدهور والانحلال ، اذا غاض ماء الحياة من مثلها الأعلى وأصبحت لا تعرف التضامن ولا تعرف الاعتصام بحبل الله .. بل صارت الى مثل مصير الحيوان ، لا هم له الا أن يلتمس كل فرد من أفرادها الرزق لنفسه ، والقضاء على أخيه

وأنت ترى هذه الظواهرات كلها واضحة ، اذا تتبععت تاريخ الأمم الاسلامية منذ منتصف العهد العباسي .. بل انك لترى مقدماتها تستشرى في كيان الأمة قبل ذلك ومنذ بداية العهد الأموي ، بل منذ قتل أبو لؤلؤة عمر ، ومنذ انتهت المؤامرة التي دبرت بقتل عثمان . صحيح ان هذه المقدمات لم يبد أثرها الا بعد قرنين أو ثلاثة قرون من قيام الاسلام .. لكنها مع ذلك هي المقدمات التي أنتجت ما نلمسه من أثر في حياة الأمم الاسلامية منذ منتصف العهد العباسي

التنافس والتطاحن

وأنت تتلو في القرآن : « انما المؤمنون اخوة فأصلحوا بين أخويكم » وتتلو : « واعتصموا بحبل الله جميعا ولا تفرقوا ، ولا تنازعوا فتفشلوا وتذهب ريحكم » . وتتلو في الحديث : « المؤمن للمؤمن كالبنيان يشد بعضه بعضا » . مع ذلك ترى في تاريخ الأمم الاسلامية منذ مئات السنين من أسباب التنافس — بل التطاحن — ما لا يتفق في شيء مع هذه المعاني السامية .. كم من أمير أو ملك في أمة اسلامية ، تحالف مع الصليبيين أو مع التتار ليكونوا ألبا على غيره من ملوك المسلمين وأمرائهم !..

وأنت ترى القرآن الكريم يفرض على الذين آتاهم الله من فضله ، أن يؤتوا الزكاة وأن يؤدوا الصدقات الى أهلها ، ويقرر في أموال ذوى المال

حقاً معلوماً للسائل والمحروم ، و يقيم بذلك مزاجاً بين الفردية التي تحفز العامل للسعى وكسب الرزق ، وبين الاشتراكية التي تكفل للجماعة الطمأنينة والاستقرار بسد عوز المعوز وحاجة المحتاج . ومع ذلك ترى عصور التدهور التي أشرنا إليها تشهد من آثار الأنانية ومظاهر الاثرة ما يناقض هذه المثل العليا كل المناقضة

وأنت ترى في القرآن الكريم من معاني التعاون ، ما لا تشهد له أثراً في العهود المتأخرة الا بقدر ما يستدر به الرجل عطف ذوى السلطان عليه.. فان رأى ذو السلطان فى تشييد المساجد ما يتقربون به الى الله ، تقرب الناس اليهم بتشيد المساجد ، وان رأى ذو السلطان الانصراف الى اللهو ، تنافس الناس فى محاكاتهم وتقليدهم .. بذلك صغرت النفوس ، وضعفت القلوب ، وهانت الكرامة الانسانية .. وأصبح أمر الناس مظاهرة لا تنطوى على حقيقة ولا مأرب لهم منها الا ارضاءهم لأنانيتهم واشباعهم لغرورهم

أثر الحضارة الغربية

ظل الأمر كذلك حتى بدأت الحضارة الغربية تظل العالم بنفوذها ، وتوقظ الراقدين من سباتهم .. وكان ذلك منذ النصف الأخير للقرن الثامن عشر المسيحى . ومن يومئذ ، بدأت الأمم الاسلامية تنفيق شيئاً فشيئاً .. وينظر حكماؤها ومفكروها فيما آل اليه أمرها . أحق انها هوت الى المنحدر الذى هوت اليه بسبب عقائدها ، أم بسبب نظام الحكم فيها ؟ .. وهل يرجع هذا النظام الى أصل من الدين ، فلا سبيل الى الخروج عليه الا بالخروج على الدين ؟ .. وهل هذه الحضارة الغربية بدعة منكورة فى نظر الاسلام ، أم أن ما فيها من خير يقره الاسلام ولا ينكره ؟ ..

هذه أمور تناولها أولئك الحكماء والمفكرون بالبحث والنظر .. وفيما كانوا ينظرون ، كان غزو الحضارة الجديدة يسير بأسرع من تفكيرهم ومن نظرهم ، وكانت نظم الحكم الغربية تنتقل مع هذا الغزو الى الأمم

الاسلامية المختلفة . وكان من المسلمين من يقول أن هذه النظم التى كفلت
سبق الأمم الى مضمار الحضارة هى وحدها التى تتفق مع روح الاسلام
وتوائمه تعاليمه

على أن أحدا من فقهاء المسلمين فى العصر الحديث ، لم يتجه نظره الى
تصوير الفكرة الاسلامية فى الحكم تصويرا كاملا ، وتطبيق هذا التصوير
على الأمم الاسلامية فى هذا الزمن الذى نعيش فيه . لم يتجه أحدهم ليقوم
مذهبا كاملا بين الحدود والتفاصيل ، يضع كل شأن من شئون الجماعة فى
المكان الواجب له من نظام الحكم فى الاطار الاسلامى الصحيح . قام
جماعة من علماء الغرب بتصوير الاشتراكية المسيحية ، ولست أعرف
أحدا قام بتصوير الاشتراكية الاسلامية فى مذهب كامل . هذا ، والتفكير
الاسلامى القديم غنى بالمادة التى تكفى لاقامة هذا المذهب الكامل فى
هذا الموضوع كغناها بالمادة التى تكفى لاقامة مذهب كامل لنظام الحكم
على الأساس الاسلامى فى صفاء جوهره

أفأستطيع أن أصور هذا النظام الاسلامى فى الحكم بما يتفق وما عليه
العالم فى هذا العصر.. ذلك ما سوف يكون بيانه فى الصفحات التالية ..



الاسلام ومبادئ الحضارة الانسانية

سبق أن أشرنا الى أن الاسلام لم يضع للحكم نظاما مفصلا ، ولكنه وضع قواعد للسلوك في الحياة وللمعاملات بين الناس ، كانت مقدمة لنظام للحكم تطور على الزمان .. وتأثر أثناء تطوره بعوامل اسلامية وأخرى خارجية ، تباينت ومبادئ الاسلام في بعض الأحيان أشد التباين . وهذا الوضع الشاذ هو الذي أدى الى تدهور الأمم الاسلامية بعد قرون معدودة من انتشار الحضارة الاسلامية في ربوع كثيرة من العالم

ولئن لم يضع الاسلام للحكم نظاما مفصلا ، فقد وضع مبادئ أساسية لحضارة الانسانية من شأنها أن تتطور على الزمان ما تطور علم الانسان وفنه وتفكيره . والأساس الاسلامي للحضارة الانسانية روحى ، يدعو الى حسن ادراك الانسان صلته بالوجود ومكانه منه ، والى البلوغ بهذا الادراك حد الايمان .. وعلى هذا الأساس الروحى ، يجب أن ينظم الانسان سلوكه في الحياة على مبادئ الأخوة والمحبة والبر والتقوى .. وعلى أساس هذه المبادئ يجب أن ينظم الحياة الاقتصادية للجماعة الانسانية

عقيدة التوحيد

كيف نستخلص من هذه المبادئ التي وضعها الاسلام أساسا للحضارة ، ما يمكن أن يكون نظاما للحكم صالحا لتحقيق أغراضها ؟.. نستخلص هذا النظام من تاريخ الاسلام نفسه ، ونستخلصه كذلك من تاريخ الأمم المختلفة على تباين العصور . فقد ثبت أن اختلاف العقيدة الأساسية ، كان دائما موضع قلق في الأمة الواحدة .. لهذا دعا الاسلام الى وحدة العقيدة على أساس بسيط كل البساطة ، يسيغه العقل الانساني في مختلف الأمم وفي مختلف الأزمان . يقول تعالى : « ان الله لا يغفر أن يشرك به ، ويغفر ما دون ذلك لمن يشاء »

وأنت ترى التوحيد عقيدة يؤمن الناس بها في مختلف أقطار الأرض ، على اختلاف أديانهم ومذاهبهم .. اليهود موحدون في أساس عقيدتهم ، ومنهم موحدون جهرة . وفي كثير من الأديان المعروفة في آسيا ، تعلو فكرة التوحيد على كل فكرة أخرى .. أنت تراها في البوذية ، وفي غير البوذية من الأديان . ولا عجب أن يكون ذلك ، وفكرة التوحيد من البساطة والوضوح بما يدعو إليها كل عقل وكل جنان

ثبات سنة الكون

هذا هو المبدأ الأول للحضارة الاسلامية .. والمبدأ الثاني هو ثبات سنة الكون وعدم تعرضها للتغير . وقد وردت في هذا المعنى آيات كثيرة ، تنص على انك لن تجد لسنة الله تبديلا ، ولن تجد لسنةه تحويلا . وقد انتهى العلم في عصرنا الى تقرير هذا المبدأ في أمر الاحياء وغير الاحياء على السواء ، وفي أمر الجماعات وأمر الأفراد كذلك . ومن خير ما وقعت عليه في هذا المعنى ، ما ذكره الفيلسوف الفرنسي « هيوليت تين » من أننا لو استطعنا أن نبلغ من طريق العلم معرفة شئون الاحياء بالدقة التي نعرف بها شئون غير الاحياء ، لاستطعنا أن نعرف مصائر الأفراد والأمم بالدقة التي نعرف بها مواقيت كسوف الشمس وخسوف القمر ، ولأتيح لنا يومئذ أن نقرر على نحو علمي ثابت مصير الانسانية بعد قرون وقرون

المساواة بين الناس

وحدانية الله وثبات سنته في الكون ، يقتضيان المساواة بين الناس أمام الله ، وخضوعهم على السواء لسنة جل شأنه .. وهذه المساواة هي المبدأ الثالث من مبادئ الحضارة الاسلامية ، وعلى أساسها أقام العرب صلاتهم بغيرهم من الأمم التي اتصل الغزو بينها وبينهم في العهد الأول .. فالأمم أخ للؤمن ، يتساوى معه في الحق والواجبات .. لا فرق بين عربي وعجمي . ومع ذلك لم يفرض الاسلام على الناس بالسيف ، بل بقيت حرية الاعتقاد وحرية الرأي مطلقة من كل قيد . بذلك طبقت الآيتان ،

الكريمتان : « لا أكره في الدين » و « أدع الى سبيل ربك بالحكمة والموعظة الحسنة » تطبيقا صادقا

وغاية ما فرض على الذين لم يعتنقوا الاسلام ، أن يدفعوا الجزية ليكونوا في حماية المسلمين يتولون دون سواهم القيام بأعباء الحرب ، والدفاع عن كيان الدولة وذمارها .. على أن عمر بن الخطاب ، لم يأب على من اطمأن الى ولائهم حين الحرب واشتراكهم فيها في صفوفه ، أن يعفوا من الجزية وأن يتساووا مع المسلمين في الأعباء العامة

عقيدة التوحيد ، وثبات سنة الكون ، والمساواة بين المؤمنين مساواة قائمة على الأخاء أكثر من قيامها على التنافس .. مبادئ اسلامية مقررة ، يشترك فيها الرجل والمرأة اشتراك مساواة تامة . فقد وجه القرآن الكريم الحديث للرجال والنساء في كل أمر من الأمور ، وجعل على الجنسين واجبات متساوية . وهذه المساواة سبق بها الاسلام الشرائع الحديثة . وهي تعتبر بعض قواعد الحضارة الانسانية كما صورها الاسلام .. ويجب لذلك أن تكون من أسس النظام الاسلامي للحكم ، يقررها التشريع وتجري على موجبها قواعد الخلق . واذا كان الأمر قد تغير بعد قليل من العهد الاسلامي الأول ، فانما مرجع ذلك الى العوامل التي ناقضت القواعد الاسلامية ، والتي أشرنا اليها من قبل

هذه المبادئ وما يتصل بها من قواعد الخلق تعتبر في نظر الاسلام واجبات وثيقة الاتصال بايمان الانسان بالله . واذا كانت حضارة عصرنا الحاضر تعتبر الكثير منها حقوقا للانسان ، له حرية التمتع بها ما شاء .. فان الاسلام يراها فروضا واجبة لا يصح للانسان أن ينزل عنها أو يتهاون فيها . هي حقوق له ازاء أمثاله ، وواجبات عليه ازاء بارئه جل شأنه .. هو خلقه ليستمتع بها ، واستمتاعه الصحيح بها عبادة لله . فاذا هو نزل عنها أو قصر فيها ، كان مسئولا أمام الله في هذه الدنيا ، وكان مسئولا أمامه في الآخرة ..

وهذه المسئولية ، هي أساس الجزاء . والجزاء الأوفى عند الله ، هو الذي

يجعل المسلم يسمو بالقيم الخلقية سموا كبيرا انه لا يخاف جزاء الشارح عنها في هذه الحياة ، لكنه مع ذلك غير ناج من جزاء الله المطلع على خافية الأنفس وما تخفى الصدور . من ثم كانت الأقدار الخلقية جليلة المقام في الحياة الانسانية لدى الجماعة الاسلامية . ولذلك من غير ريب ، أثره البالغ في حياة الجماعة وفي نظامها وفي الحكم وآثاره

والاسلام يقر التملك والأسرة والميراث ويقررها .. ويرى بعضهم لذلك أنه يتفق في اتجاهه الاقتصادي مع المذهب الفردى .. وهذا خطأ ، فالاسلام حين يقرر التملك والأسرة والميراث .. يجعل في مال ذى المال حقا معلوما للسائل والمحروم ، ويجعل فرضا على الجماعة أن تكفل للفرد حياته . ومن الخطأ الظن بأنه لذلك يتفق في اتجاهه الاقتصادي مع المذهب الاشتراكي .. انما الاسلام مزاج من المذهبين ، يزاوج بينهما في ظل قواعد الخلق المتصلة بالايمان ذلك الاتصال الوثيق الذى أشرنا اليه

نظرية الواجب

يجعل الاسلام فرضا على الجماعة أن تكفل للفرد حياته .. وهذه الكفالة تبدأ من يوم ولد ، وتظل الى يوم يموت . وهى لا تقف في حدود القوت لمن لا يجد القوت ، بل هى تتناول كل حاجات الفرد الانسانية على اختلاف صورها .. فمنذ عهد النبى ، كان تعلم الناس وتفقههم في دينهم بعض واجبات الجماعة للفرد . وظل الأمر كذلك في مختلف العهود حتى في عهود الانحلال والتدهور . فحيثما أقيم مسجد للعبادة أقيمت معه مدارس يتعلم فيها أبناء المسلمين فتية وفتيات ، واعتبر ذلك واجبا لا محيد عنه .. وأمر الصحة كأمر التعليم .. كانت تقام المستشفيات الى جوار المساجد ، وعلى مقربة منها - وكان الناس جميعا يؤمنونها - لأن الصحة العامة كانت بعض واجبات الدولة للأفراد ، كما كانت بعض واجبات الأفراد على أنفسهم الله

نظرية الواجب هذه أساسية في النظام الاسلامى ، وهى مستمدة من

مسئولية الانسان أمام الله أولا وقبل كل شيء . الانسان مسئول أمام الله عن كل أعماله ، كبيرها وصغيرها ، دقيقها وجليلها .. مسئول عن نواياه ومسئوليته عن أعماله . فالتوايا مظاهر نفسية يطلع الله عليها ، كما أن الأعمال مظاهر مادية يطلع الله ويطلع الناس عليها . والجماعة الانسانية مسئولة أمام الله كمسئولية الفرد سواء بسواء .. عليها واجبات للفرد وواجبات لنفسها ، ان قصرت في أدائها لقيت جزاءها من الله كما يلقي الفرد جزاءه من قضائه .. والقائمون بأمر الجماعة هم الذين تقع هذه المسئولية على عاتقهم أولا وبالذات

وتقرير نظرية الواجب على هذا النحو ، يجعل ما نسميه في التفكير الحديث حقوقا ، بعض هذا الواجب علينا أفرادا وجماعات ، ولهذا لا نملك النزول عنه . فالحرية العقلية واجب ، لأننا اذا نزلنا عنها ضللنا طريق الهدى الى الله وعجزنا عن معرفة سنته في الكون . والدفاع عن حرية الغير واجب ، لأن الاعتداء عليها منكر ، ورسول الله يقول : « من رأى منك منكم منكرا فليغيره بيده ، فان لم يقدر فبلسانه ، فان لم يقدر فبقلبه ، وذلك أضعف الايمان .. » وحب الغير واجب لأن المرء لا يكمل ايمانه حتى يحب لأخيه ما يحب لنفسه .. وفعل الخير واجب القادر عليه لأنه المظهر الأول لحب الغير .. وتضامن الجماعة واجب لأنه الكفيل بحريتنا في أداء واجباتنا وإبراء ذمتنا منها أمام الله وأمام الناس ، وهو الكفيل لذلك بسعادة الفرد والجماعة في الدنيا والآخرة



حسبى ما قدمت من مبادئ جوهرية قررها الاسلام أساسا للحضارة الانسانية .. فليس يتسع المقام لسرد سائر المبادئ ، وهو لا يتسع لتفصيل الفكرة في أى من المبادئ التى قدمت . وهذا الذى قدمت يرسم أمام النظر اطارا عاما للفكرة الاسلامية في الحياة ونظامها .
ونظام الحكم في الاسلام هو النظام الذى تتحقق في ظلاله هذه الفكرة

العامّة ، كما تتحقّق المبادئ التي تقوم عليها الحضارة الانسانية في تطورها
الدائم نحو الكمال

الحكومة الاسلامية والتشريع

وقد رأينا نظام الحكومة الاسلامية اختلفت صورته .. فهو في عهد
الخلفاء الراشدين غيره في عهد بنى أمية ، وهو في هذين العهدين غيره في
عهد بنى العباس . ومن غير الميسور أن نختار نظاما من هذه النظم فندعو
للعودة اليه .. فنظام الحكم لا يتأثر بالمبادئ وحدها ، بل يتأثر كذلك
بالبيئة التي يقوم فيها ، وبالأحداث التي تمر بهذه البيئة ، وبالتطور الفكري
والعلمي الذي ينتهي الناس اليه

وقد تأثر نظام الحكم في الممالك الاسلامية بهذه العوامل تأثرا بينا ،
فاقض بعض المبادئ التي أشرنا اليها في هذا الحديث مناقضة ظاهرة ..
فليس طبيعيا أن نسمى هذا النظام نظاما اسلاميا سليما .. وليس طبيعيا
كذلك أن نعود بنظام الحكم الاسلامي الى الفكرة العربية الاولى ..

فالتطور الذي مر به العالم خلال القرون الثلاثة عشر الأخيرة يجعل هذا
العود غير مستطاع . لكن هذا ليس معناه أن نظام الحكم الاسلامي لا
يستطاع تطبيقه في عصرنا الحاضر ، وانما معناه اننا يجب أن نجعل هذا
النظام قائما في حدود تفكيرنا ، محققا في نفس الوقت للفكرة العامة
وللمبادئ التي وضعها الاسلام أساسا للحضارة الانسانية لا يحيد عنها
ولا يجري على نقيضها

ولن يعترض أحد بأن مراعاة التطور الفكري والعلمي الذي انتهى
الناس اليه والملاءمة بينه وبين النظام الاسلامي للحكم فيه ما يخالف المبادئ
الاسلامية ، ما دام النظام الذي يقوم تكون غايته تحقيق هذه المبادئ ،
وما دام النظام نفسه يقوم في حدود هذه المبادئ ..

خذ مبدأ المساواة مثلا .. أشرنا الى أن مبادئ الاسلام الأساسية لقيام
الحضارة الانسانية ، تفرض تساوي الناس جميعا أمام الله ، وانطباق سنته

جل شأنه في الكون على الجميع على السواء . هذا المبدأ يجعل للناس جميعاً حقاً ثابتاً في الاشتراك في الحكم عن طريق الشورى ، ويجعل الحاكم والمحكوم متساويين أمام القانون وأمام ما أمر الله به وما نهى عنه . وذلك قول أبى بكر حين بويع بالخلافة : « أطيعونى ما أطعت الله فيكم ، فان عصيته فلا طاعة لى عليكم » فكل نظام تراعى فيه هذه المساواة ، وتكون وسيلته الشورى نظام اسلامى .. سواء أكان هذا النظام من نوع خلافة الراشدين ، أم من نوع امارة المؤمنين على عهد الأمويين ، أم من نوع آخر تتحقق به هذه المساواة

ومثل آخر نسوقه ، وفيه من الدلالة على مراعاة التطور ما يشهد بأن النظام الاسلامى لا يقف فى سبيل كل تطور تمليه مصلحة الجماعة ، ما دام متفقاً مع مبادئ الاسلام العامة .. فالأسرة هى الحجر الأول فى بناء الجماعة الاسلامية كما قدمنا ، لكن الأسرة الاسلامية تقوم على أساس المودة والرحمة ، ولا تقوم على أساس جامد من الاكراه الذى يشقى به الناس .. فاذا خيف الشقاق بين الشريكين الذين يكونانها - الزوج والزوجة - وجب العمل على ازالة هذا الشقاق .. فان أمكنت ازالته فذاك ، والا افترق الزوجان على ما فى ذلك من مضرة هى دون مضرة الحياة القائمة على أساس من الشقاق . ولهما أن يتراجعا ليعيدا للأسرة كيانها . وفرقة الزوجين هى الطلاق .. والطلاق مرتان : فامسك بمعروف أو تسريح باحسان .. وذلك لتيسير المراجعة ..

ومع ذلك ، رأى عمر بن الخطاب أن الناس أسرفوا فى الطلاق الثلاث دفعة واحدة ، فأجازه واعتبره عقوبة لهم على تسرعهم وعلى خروجهم على أمر كان لهم فيه أناة .. وظل الأمر فى شأن الطلاق على رأى عمر قرناً كثيرة . وها نحن أولاء نعود الى ما كان الأمر عليه فى حياة رسول الله ، وفى حياة أبى بكر ، فلا يقع الطلاق ثلاثاً الا واحدة ليتراجع الزوجان وتستقر الأسرة

والأمر فى تعدد الزوجات كالأمر فى الطلاق .. تطور من التقييد الذى

حياء في القرآن الى الاطلاق من القيد في عهد التدهور والانحلال .. وهو الآن يعود الى ما يتفق والمبدأ الذي أقره الاسلام دون حاجة الى تشريع خاص ، وهو وحدة الزوجة الا الحاجة ماسة

وأود قبل أن أختم هذا الحديث ، أن أذكر أن نظام الحكم لا يقصد به التفاصيل التي يراها بعضهم كل شيء .. انما يقصد بنظام الحكم في الاسلام تحقيق الفكرة السامية والمثل الأعلى والمبادئ العامة التي أرادها الاسلام أساسا للحضارة .. فاذا حقق النظام هذا الغرض ، وان تجاوزته بعض التفاصيل ، كان النظام الاسلامي القدير على التطور مع تقدم الانسانية في تفكيرها وعلمها وفنها . وان هو وقف عند التفاصيل دون تحقيق الغرض الأسمى ، كان نظاما جامدا متداعيا كالنظم التي قامت في عهود الانحلال .. وبَعْدَ بذلك عن أن يكون نظام الحكم في الاسلام ، كما أراده صاحب الوحي للاسلام أن يكون

والواقع أن نظام الحكم شيء ، والتشريع والقانون شيء آخر .. نظام الحكم هو الاطار العام الجدير بالثبات والاستقرار لتحقيق الأغراض الانسانية السامية ، فلا تعتريه الغير الا اذا عجز عن تحقيق هذه الأغراض .. أو كان ادخال التعديل عليه كفيلا بأن يجعله أدنى الى تحقيقها . أما التشريع والقانون فيتنطوران في حدود هذا النظام المستقر على أنهما أداة الحركة والنشاط . والنظام الاسلامي الذي أردنا في هذا الحديث أن نصوره هو النظام الذي تتحقق بقيامه المبادئ الاسلامية والمستمد من الايمان الحق بالله ، وبثبات سنته في الكون ثباتا ندركه بعقولنا الحرة ونفكيرنا المتصل ، وأن تتعاون فيما بيننا على أن يجب أحدا لأخيه ما يجب لنفسه ، وأن يؤدي الفرد واجبه لله وللجماعة ، وأن تؤدي الجماعة واجبها لله وللأفراد جميعا

الاشتراكية والديموقراطية في الإسلام

- ١ -

الاشتراكية الإسلامية

- * وجهة الاشتراكية الإسلامية
- * أسس الاشتراكية الإسلامية
- * تطبيق نظام الاشتراكية
- * الأمم الإسلامية في العصر الحديث

وجهة الاشتراكية الاسلامية

لم يطبق النظام الاشتراكى فى الحياة الاقتصادية لأمة بأسرها الا فى هذا العهد الحديث .. وذلك منذ أصبحت الشيوعية النظام الأساسى لروسيا السوفيتية . والشيوعية صورة من صور الاشتراكية الكثيرة المتباينة .. وهى أكثر هذه الصور تطرفا وأشدها امعانا فى انكار الملكية الفردية . وهذه الشيوعية تناقض المبادئ الاسلامية كل المناقضة .. فهى تنكر الملك والميراث والأسرة ، والملك والميراث والأسرة نظم جوهرية فى الحياة الاسلامية . هذا التباين .. بل هذا التناقض الصريح بين الاسلام والشيوعية ، يقتضينا ونحن نبحث فى الاشتراكية الاسلامية أن ندع الشيوعية جانبا ، وأن ننظر فيما عداها من صور الاشتراكية حتى نرى أوجه الاتفاق وأوجه الخلاف بين هذه الصور والاشتراكية الاسلامية

ويجمل بنا قبل أن نواجه هذا البحث أن نذكر أن الفكرة الاشتراكية التى نشأت منذ ألاف من السنين ، انما نشأت صيحة ألم لما بين الناس من التفاوت فى حظهم المادى من الحياة .. وانها كانت ترمى دائما الى محو هذا التفاوت حتى تقضى على نتائجه الاجتماعية ، وفى طليعتها التباغض والحسد والنضال المستتر حيناً .. الواضح حيناً آخره ، وحتى تزيل ما يشعر به المحرومون من ألم الحرمان

ولقد طالما تحدث العلماء والكتاب الاشتراكيون عن هذا التفاوت فى حظوظ الناس ، ونسبوه الى فساد النظم التى تقوم الجماعات الانسانية عليها . وليس يحدثنا التاريخ الذى نعرفه عما كان قبل أفلاطون من صور الاشتراكية .. ولذلك ألف كثيرون أن ينعتوا أفلاطون « أبا الاشتراكية » ومن يومئذ الى يومنا الحاضر لم يفتأ الاشتراكيون يتحدثون فى هذا التفاوت فى وسائل ازالته ، ويقىمون من المذاهب ويقترحون من النظم ما يرونه كفيلا بتحقيق الغاية التى يرمون اليها

والأكثر من العلماء والكتاب ينظرون الى المسألة من ناحيتها الاقتصادية البحتة . والأمر كذلك في عهدنا الحديث بنوع خاص . ولا ريب في ذلك ، والنظام الاجتماعى في هذا العهد يقوم على أساس اقتصادى صرف ، وعلاقات الناس بعضهم ببعض ، وعلاقات الأمم بعضها ببعض ، تخضع خضوعاً تاماً لما بينها من صلات اقتصادية .. بل لا عجب في ذلك وقد أقام كثير من الفلاسفة قواعد الخلق على أساس اقتصادى ، وقد نادى كثيرون بأن تاريخ الانسانية لا تفسير له الا في نظمها الاقتصادية ، وأن حضارات العالم في الأزمان المختلفة انما تكيّفت بتطور نظم العالم الاقتصادية . لا مفر لمن يجعل هذه الناحية وجهة نظره للحياة ، ثم يكون من دعاة الاشتراكية ، أن يجعل غاية همه في الدعوة الى ازالة ما بين الناس من التفاوت المادى ، ليرتفع الظلم عن عاتق الأكثرين ، ولتكون الكثرة من الناس أكثر بالحياة سعادة ، وعنهما رضا

ولقد أثبت تعاقب القرون ان ازالة هذا التفاوت أمر غير مستطاع ، وان اقامة الاشتراكية على أساس من المساواة بين الناس في حظوظهم المادية ، لا يزيل الظلم الذى يذكرونه .. فمقدرة الناس على العمل في الحياة تتفاوت ، ومتاعهم بنعم الحياة يتباين .. ففيهم القوى والضعيف ، وفيهم الصحيح والمريض ، وفيهم المتهالك على لذائذ العيش ومن يرى الزهد فيها لذة تفوق كل لذة .. ولا سبيل الى التسوية بين هؤلاء جميعاً ، وعلى أساس يرضى الجميع عنه

الديمقراطية الحققة

ثم انك لا تستطيع أن تنكر على الفرد ذاتيته ، ولا تطمح في أن تصل من الجماعة الى العدل المطلق .. لا بد اذا من مزاج يحقق خير الجماعة وحرية الفرد في ظل العدل الانسانى . وتحقيق هذا المزاج يجب أن تراعى فيه ذاتية الفرد وكيان الجماعة لا من الناحية المادية وحدها بل من النواحي الانسانية المختلفة .. ومن بينها الفطرة ، والعاطفة ، والهوية ، ومن بينها الغرائز الاجتماعية التى تقيم الأسرة ، وتقيم المدنية ، وتقيم الجماعة

الإنسانية بوجه عام

وهذا المزاج هو ما قصد اليه الاسلام .. فهو لم ينكر ذاتية الفرد ، ولم ينكر حقه في التملك ، ولم يغفل الغرائز المختلفة التي تحركه في الحياة .. لكنه قدر الى جانب ذلك أن الجماعة يجب ألا تبخل من حماية الذاتية الفردية حدا يزيد القوى قوة والضعيف ضعفا ، ويكون لذلك سببا في تداعى الجوانب السامية في نفس الانسان .. جوانب الايثار والمحبة ، وما انبها من عواطف أصيلة في النفس هي قوام الأسرة وهي قوام الجمعية كلها . وتحقيق هذا المزاج ، هو الأساس الأول للاشتراكية الاسلامية . وهذا الأساس يقوم على مبادئ تكفل رفع الظلم الذى يشكو الناس منه ، والذى أدى منذ أقدم العصور الى التفكير فى الاشتراكية ومحاولة تنظيمها لتكون صالحة للحياة العملية فى الجماعات

ولم ينكر غير الشيوعيين مثل هذا المزاج .. فكثير من المبادئ الاشتراكية لا تنكر الملكية الفردية انكارا مطلقا ، ولا تنكر الأسرة ولا التوارث . وبعض هذه المذاهب يقر الملكية الصغيرة فى الزراعة والصناعة والتجارة ، وان أنكر الملكية الكبيرة فيها جميعا . ومنها من يدعو الى الاشتراك المطلق فى مواد الانتاج ، ويقر الفردية فى التمتع بشرات هذا الانتاج . ومنها كذلك ما يجعل العمل أساس توزيع الثروات .. يتخذ العمل بديلا من رأس المال الذى يقوم النظام الفردى على أساسه

هذا التعدد فى صور الاشتراكية ، هو الدليل على أن الإنسانية تحاول منذ القدم أن تهتدى الى نظام يزيل الاجحاف الناشئ عما بين الناس من تفاوت فى حظوظهم المادية . ولم تذهب هذه المحاولات عبثا .. فلم يستقر النظام الفردى بصورة مطلقة فى الحياة الاجتماعية الا فى فترات وجيزة . وأنت ترى اليوم صورا من الاشتراكية تجاوز النظم الفردية فى الحياة الاقتصادية للأهم كلها . وما تقرر من حقوق مشتركة للجميع .. كالتعليم ، والصحة ، والتعاون ، وما اليها ، ليست الا بعض هذه الصور تقررها الجماعات للخير العام من ناحية ، واقارارا لمبادئ العدل بين الأفراد من

الناحية الأخرى

وهذا التجاور بين النظم الفردية والنظم الاشتراكية في الجمعية الواحدة أمر طبيعي ، بل هو وحده الطبيعي .. فالجماعة الانسانية - على أى أساس أقمتها - لا يمكن أن تنهض الى الكمال الواجب عليها ، الا اذا كفلت للفرد حريته في النشاط الذاتى ، وحقه في المتاع العادل بشرات هذا النشاط .. ثم حالت في نفس الوقت بينه وبين الضغط على نشاط غيره ، وبينه وبين ما لغيره من حق في ثمرات نشاطه والمتاع بها .. بذلك يكفل تضامن الجهود في توجيهها لخير الجميع

والمبادئ الاسلامية في التنظيم الاجتماعى تحقق هذا كله .. فهى تقر الملك والأسرة والميراث كما قدمنا ، وتعتبرها نظما أساسية في الحياة الاجتماعية .. لكنها تقدر ما في قيام الملكية الكبيرة واستمرارها من خطر الطغيان من جانب الأغنياء ، والشعور بالظلم الناشئ عن تفاوت الحظوظ المادية من جانب الفقراء . لذلك عملت للحيلولة دون قيام الملكية الكبيرة على أساس غير المجهود الذاتى .. ولبلوغ هذه الغاية حرم القرآن الكريم الربا ، وجعل نظام الميراث وسيلة فعالة لتجزئة الملكية الكبيرة . وفى تجزئتها ، وفى تسهيل انتقال أجزائها من فرد الى فرد ، ومن أسرة الى أسرة ، ما يزيل الخوف من ألم النفوس لتفاوت الأرزاق تفاوتاً ظالماً

لم يكتف الاسلام بهذه القيود التى فرضها على الملكية وثمراتها وطريقة توزيعها .. بل جعل على أصحابها حقوقاً لبيت مال المسلمين يؤدونها زكاة عن أموالهم وصدقة تطهرهم ، وجعل للفقراء الذين حرموا السعة في الرزق ، للمحتاجين الذين ثقلت عليهم الحياة حقوقاً في بيت مال المسلمين مقرررة بقوله تعالى : « انما الصدقات للفقراء والمساكين والعاملين عليها والمؤلفة قلوبهم وفى الرقاب والغارمين وفى سبيل الله وابن السبيل فريضة من الله والله عليم حكيم » والحديث المأثور عن النبى عليه السلام أنه قال : « أمرت أن آخذ الصدقة من أغنيائكم وأردها على فقرائكم » يتفق تمام الاتفاق وأحكام الآية السابقة من القرآن

على أن الاسلام لا يريد أن يكون هذا الاشتراك في مال الأغنياء - مما جعله حقاً للفقراء - أمراً تشريعياً ينزل المشرع حكمه طائعا أو كارها ، بل أراد به أمراً تعبدياً يجب أن يتصل بالايمان اتصال الصلاة والصوم وسائر الفروض . وذلك قوله تعالى : « ليس البر أن تولوا وجوهكم قبل المشرق والمغرب ، ولكن البر من آمن بالله واليوم الآخر والملائكة والكتاب والنبين ، وآتى المال على حبه ذوى القربى واليتامى والمساكين وابن السبيل والسائلين وفى الرقاب ، وأقام الصلاة وآتى الزكاة ، والموفون بعهدهم إذا عاهدوا ، والصابرين فى البأساء والضراء وحين البأس ، أولئك الذين صدقوا وأولئك هم المتقون »

الاشتراكية الاسلامية يجب أن تقوم بالنفس على أنها من فرائض الايمان .. وهذا الايمان نفسه له فى قيام الاشتراكية أثر بالغ



أسس الاشتراكية الإسلامية

الاشتراكية الإسلامية تناقض الشيوعية وتحاربها .. فهي — على خلاف الشيوعية — تعتبر الملك ، والأسرة ، والميراث ، نظما أساسية في الحياة الاجتماعية . لكنها ترى الغنى الفاحش مصدر طغيان يخشى خطره .. لذلك عملت للحيلولة دون قيام الملكية الكبيرة على أساس غير المجهود الذاتي ، فحرم القرآن الكريم الربا ، وجعل الميراث وسيلة فعالة لتجزئة الملك ، ثم فرض للفقراء حقوقا على الأغنياء .. وجعل هذا كله من فرائض الايمان ، فكفل بذلك للاشتراكية الإسلامية القوة والبقاء

وأبادر ، بادىء ذى بدء ، بتفسير ما أقوله من أن الاسلام جعل هذه الأمور من فرائض الايمان .. فان كثيرين يسألون : لم فرض الاسلام على اناس أموراً تدخل في نظام حياتهم في هذا العالم ، ولم يكتف بالعبادات وما بين المرء وخالقه مما يتصل بالعقيدة ، لترك ما بين الناس بعضهم وبعض ، ينظمونه على مقتضى مصالحهم في العصور المختلفة ، والأمم المختلفة ؟

وأكرر ما سبق أن قلته غير مرة : أن القرآن الكريم لم يتناول تفصيل المسائل بل مبادئها العامة ، ثم ترك التفاصيل ينظمها الناس بما يحقق مصالحهم .. واجتهاد المسلمين في العصور المختلفة ، واحترامهم جميعا للمذاهب المختلفة التي أقامها هذا الاجتهاد ، أقوى حجة على هذا . وما جاء به القرآن الكريم من المبادئ العامة لنظام الحياة الدنيا جوهرى في الاسلام لسلامة العقيدة .. ولذلك كانت العقيدة السليمة والايمان الصادق ، قوام هذا الدين .. وكانت مصدر النظام الروحى الذى يجب أن يقوم الخلق الحسن على أساسه . وكل خروج في نظم الحياة الاجتماعية على قواعد الخلق ، وعلى النظام الروحى الذى تقوم عليه ، جدير بأن يترك

أثره السيء فى الأخلاق وفى العقائد العامة ، وفى الايمان والعبادات المترتبة عليه

يجب على ، لأزيد هذه الفكرة وضوحا ، أن أذكر اتجاه الاسلام الواضح فى تقرير سلطان الروح فى سموها الى المثل الأعلى على الغرائز الانسانية الجمعية فى حدود الحياة ، وحاجاتها العاجلة . والناس جميعا — على اختلاف أديانهم ومذاهبهم — يؤمنون بهذا السلطان ، وان كانوا لا يرتبون عليه كما يرتب الاسلام كل نتائج . وهل غرضنا جميعا من تربية أبنائنا وتهذيب نفوسنا الا أن نهذب هذه الغرائز ، وأن نبلغ بتهذيبها أسمى المبادئ الانسانية ؟ .. وأكثر الأمم رقىا ، وأكثرها نجاحا فى تربية أبنائها ، هى التى تصل بهم الى الايمان بمبادئ الغيرية والايتار على أنها واجب عليهم لأنفسهم ، ولأبناء جنسهم . وهم لذلك يقررون ما توجهه هذه المبادئ بوحى ضمائرهم .. وان لم يفرضها عليهم قانون أو يلزمهم بها سلطان

والتربية والتهذيب ، غرضهما الأساسى تقوية سلطان العقل والروح على الغرائز الأولية التى يحركها الحرص على الاحتفاظ بالحياة .. وكلما زاد سلطان العقل والروح على الغرائز السليقية ، ازدادنا ايمانا بفكرة الواجب واذاعانا لندائه المنبعث من ضمائرنا .. فاذا بلغ اقتناعنا بهذه الفكرة مبلغ الايمان ، وأيقنا بأن هذا الواجب يفرضه علينا بارىء الوجود ، وزاد بنا اليقين فعلمنا أن هذه الحياة ليست كل شىء ، وأن النتائج العاجلة التى نجنيها من اطاعة غرائزنا الأولية كثيرا ما تضرنا فى حاضرننا وفى مستقبلنا ، كنا أشد بالواجب ايمانا ، ثم رتبنا على مقتضى هذا الواجب معاملتنا للناس وصلتنا بهم

وضرورة الايمان بالواجب ، وتقديمه على حاجات الحياة المادية ، مقررة فى النفوس جميعا منذ بدأ الانسان يفكر .. والجندى الذى يبذل حياته فداء لوطنه ، مثل حى لهذا الايمان فى كل العصور . وحينما فكر بعضهم فى اقامة نظم دينية بأوربا تساير حضارتها فى القرون الأخيرة ، كان دين

الواجب بعض ما فكر فيه « أوجست كنت » .. ذلك لأن الغرائز الفردية الجبسية في حدود الحياة وحاجاتها العاجلة ، تقتصر عن أن تسمو بالإنسان الى حيث أعده القدر . ولذا وجب أن يكون سلطان العقل والروح على هذه الغرائز الفردية قويا الى الحد الذى يكفل حياة الجماعة الانسانية وطمأنينتها وسعادتها .. وقواعد الخلق هى الكفيلة بتحقيق هذه الأغراض والايمان بأن هذه القواعد جوهرية لبلوغ الكمال فى أداء الواجب ، هو القوة الروحية السامية التى تطمئن اليها قواعد الخلق ، وتدعو الناس الى القيام بالواجب حرصا على رضا الضمير ، ورضا الله

على هذا الأساس ، كانت الزكاة ركنا من أركان الاسلام ، وكانت الصدقة فريضة من فرائضه . والزكاة لها قواعدها .. والوالى ينظمها حسب مقتضيات الوقت كما تنظم الحكومات الضرائب ، ويقتضيها الناس بقوة الشرع وسلطانه . فاذا نكل الناس عن أدائها أكرهوا عليه . وامتناع العرب عن أداء الزكاة ، هو الذى أدى الى حروب الردة فى عهد أبى بكر . أما الصدقة ففريضة تعبدية أوجبها الاسلام على كل قادر عليها لخير من هو فى حاجة اليها . وجعل جزاءها عند الله كجزاء الايمان بالله . وذلك قوله تعالى : « خذوه فغلوه . ثم الجحيم صلوه . ثم فى سلسلة ذرعها سبعون ذراعا فاسلكوه . انه كان لا يؤمن بالله العظيم . ولا يحض على طعام المسكين » وقوله جل شأنه : « الذين ينفقون أموالهم بالليل والنهار سرا وعلانية فلهم أجرهم عند ربهم ولا خوف عليهم ولا هم يحزنون » وكون الصدقة فريضة ، صريح فى قوله تعالى : « انما الصدقات للفقراء والمساكين والعاملين عليها والمؤلفة قلوبهم وفى الرقاب والغارمين وفى سبيل الله وابن السبيل ، فريضة من الله ، والله عليم حكيم » وفى قوله جل شأنه : « والذين فى أموالهم حق معلوم للسائل والمحروم »

والأحاديث الواردة فى الصدقة ، متفقة مع ما جاء فى كتاب الله ، مستفيضة قوية بغاية القوة فى الحض عليها .

تحديد الثروة

أما نزعة الاسلام الى تحديد الثروة ورغبته عن الثروات الضخمة ، فواضح في القرآن الكريم كل الوضوح . من ذلك قوله تعالى : « ان الانسان ليطغى ، ان رآه استغنى » ومنه قوله : « يا أيها الذين آمنوا ان كثيرا من الأحبار والرهبان ليأكلون أموال الناس بالباطل ويصدون عن سبيل الله . والذين يكنزون الذهب والفضة ولا ينفقونها في سبيل الله فبشرهم بعذاب أليم . يوم يحمى عليها في نار جهنم فتكوى بها جباههم وجنوبهم وظهورهم . هذا ما كنزتم لأنفسكم فذوقوا ما كنتم تكنزون »

هذه كلها ميول اشتراكية واضحة .. على أن أشد ميول الاشتراكية الاسلامية اتفاقا مع ما تنادى به بعض المذاهب الاشتراكية المعتدلة في عصرنا الحديث ، فذلك جعله العمل الأساس الأول لتوزيع الثروة واعتباره رأس المال وسيلة للعمل .. وليس عنصرا قائما بذاته تترتب لصاحبه ثمرات كالتي تترتب للعامل ، أو لمالك الأرض وغير الأرض من أدوات الانتاج وهذا الاعتبار هو في رأيي السبب الجوهرى لتحريم الربا .. فاقراض المال وفرض فائدة معينة له ، بقطع النظر عن الثمرة التي يجنيها من يثمر هذا المال ، وعما قد ينشأ عن هذا التثمين من الخسارة ، معناه اشتراك رجل لا يعمل في ثمرات العمل الذي يقوم به غيره . فاذا اعتبرنا رأس المال ثمرة عمل سابق اشترك به صاحبه مع من يثمر المال المقترض كانت النتيجة العادلة أن يكون المقرض والمقترض شريكين لكل من الربح ، وعليه من الخسارة حظ معلوم . اما أن يكون لأحد الطرفين ربح ثابت سيان ربح الآخر أو خسر ، وأن يسمى هذا الربح فائدة المال ، فذلك ما لا يقره الاسلام بحال

ليس معنى هذا بالطبيعة أن الاسلام لا يقر قيام الشركات .. فكل شركة تتألف للقيام بعمل من الأعمال ، ويكون للشركاء فيها حظ من الربح وعليهم حظ من الخسارة ، بمقدار نجاح الشركة أو مصادفتها العقبات ،

يتفق وما قدمنا تمام الاتفاق . ولقد ظل التجار يقومون من مكة بعد الاسلام ، كما كانوا يقومون قبله ، فيجمعون الأموال من أهلها ويتجرون فيها ثم يقسمون الأرباح بين الشركاء . وقد تطورت نظم الشركات بتطور الأحوال التى مرت بها الدول الاسلامية ، فنظم الفقهاء أحكامها بما هداهم اليه اجتهادهم

العمل أساس الجزاء

وكما قصد من تحريم الربا الى أن يكون عمل العامل هو الركن الأساسى لتوزيع الثروة ، قصد من قواعد التوريث الاسلامى الى الحيلولة دون قيام الملكية الكبيرة واستمرارها أجيالا فى يد واحدة . وقد لاحظ الذين تتبعوا انتقال الثروة فى الأمم الاسلامية خلال العصور ، سرعة تنقلها وعدم استقرارها فى يد واحدة استقرارا يغرى بالطغيان . وكانت هذه الملاحظة ، موضع تفكير من جانب الذين يظنون أن تقدم الأمم رهن باستقرار الأسر العريقة وتقاليدها الصالحة . لكن هذا التفكير لا يتفق وميول الاسلام الاجتماعية ، ولا يتفق مع ما ينطوى عليه هذا الدين من حرص على قيام المزاج الضرورى من الفردية والاشتراكية لخير المجموع ، ثم هو لا يتفق أخيرا مع الأساس الجوهرى الذى وضعه الاسلام أساسا لهذه الحياة الدنيا وللحياة الآخرة ، والذى تلخصه الآية الكريمة : « فمن يعمل مثقال ذرة خيرا يره ، ومن يعمل مثقال ذرة شرا يره »

وهذا الأساس الجوهرى ، هو ما جعلنى أقرر من غير تردد أن الاسلام يشترك مع المبادئ الاشتراكية المعقولة فى هذا العصر الحديث ، اذ يقرر أن العمل أساس الجزاء .. ويجب لهذه الغاية أن يكون أساس توزيع الثروة . ولا أراى بحاجة الى ذكر نصوص القرآن الكريم التى تقرر هذا المبدأ فى وضوح وصراحة فالآيات التى فى معنى قوله تعالى : « وهل تجزون الا ما كنتم تعملون » متواترة فى القرآن الكريم تواتر الآيات التى تحض على الزكاة ، وعلى الصدقة ، وعلى الايمان بالله

الاشتراكية الاسلامية لا تنكر اذا ذاتية الفرد ، ولذلك لا تنكر الملك
ولا الأسرة ولا التوارث . وهى مع ذلك تنكر التفاوت الذى يخلق
الطبقات ، ويقوم بينها النضال ، وما ينشأ عن النضال من عداوة وبغضاء ..
ومن ثم ، جعلت العمل أساس الجزاء وتوزيع الثروة ، وحرمت كل وسيلة
تلغى تجيز الاستيلاء على مجهود الغير



تطبيق الاشتراكية

في عهد النبي صلى الله عليه وسلم

النظام الاقتصادي في الاسلام مزاج من الفردية والاشتراكية .. فهو يقرر الملك والأسرة والميراث ، وهو يقيم طائفة من القيود والحدود تخفف من التفاوت بين الناس في حظهم المادى ، وهو يجعل قواعد الخلق القائمة على أركان الايمان الاسلامى أساس هذا النظام ، ليكفل له القوة والبقاء كيف طبقت الاشتراكية الاسلامية القائمة على هذا الأساس فى الصدر الأول للإسلام ؟

أما فى عهد رسول الله ، فقد بلغ تطبيقها غاية السمو .. وكان الرسول الكريم الأسوة الحسنة فيها ، ثم كان أصحابه مثال الايثار على أنفسهم . وأنت اذ ترجع الى ما قبل الهجرة الى المدينة ، ترى من أمثلة ذلك الشئ الكثير .. فكثيرا ما افتدى أبو بكر الأرقاء ، الذين أسلموا فعذبهم سادتهم ، ثم أعتقهم بعد افتدائهم . وكذلك فعل غير أبى بكر .. بل لقد كاد المسلمون يعتبرون أموالهم جميعا ملكا مشتركا بينهم جميعا . ولذلك أفنى أكثرهم ماله ، فلم يبق له الا القليل حين الهجرة الى المدينة كانت أموال خديجة أم المؤمنين طائلة ، وكان رسول الله يتصرف فيها كما يشاء . ولقد أنفقها جميعا على المسلمين ، فلم يكن له منها حين الهجرة شئ . وكان أبو بكر قد جمع من التجارة أربعين ألف درهم قبل اسلامه .. ومع انه ظل يتجر بعد أن أسلم ، فيجنى من التجارة وافر الربح ، فقد كان كل ماله يوم هاجر الى المدينة خمسة آلاف درهم . وأنفق عثمان بن عفان لخير المسلمين صدقات يخطئها العد

ولما قاطعت قریش رسول الله وأصحابه ، وأكرهتهم على أن يقيموا بشعاب الجبل ثلاث سنوات متعاقبة لا يتصلون بسائر أهل مكة فى تجارة ، كان الفقراء يأكلون من مال ذوى اليسار .. لا يحاسبهم أحد ، وذوو

اليسار هؤلاء مطمئنون الى أن الله سيجزيهم عن بذلهم لآخوانهم أوفى
الجزء

فلما هاجر المسلمون الى المدينة ، وبدأ رسول الله يعلن الى أهلها تعاليم
الاسلام ، كان الأخاء الاسلامي حجر الأساس في دعوته الى الدين الجديد
والحضارة الجديدة . وكان هذا هو الدليل على أن تعاليم مكة لم يدع
اليها اضطهاد المشركين للذين أسلموا ، ولذلك لم يكن الاضطهاد سبب
ما رأيت من أخاء وبذل واشتراكية . فلقد ظلت تعاليم محمد بمكة قائمة على
الأساس الذي نادى به منذ اليوم الأول ، أساس الأخاء الصادق ، فلا
يكمل ايمان المرء حتى يحب لأخيه ما يحب لنفسه .. وحتى يصل به هذا
الأخاء الى غاية البر والرحمة من غير ضعف ولا استكانة ..

سأل رجل من أهل المدينة محمدا : « أى الاسلام خير ؟ » فأجابه :
وتطعم الطعام وتقرأ السلام على من عرفت ومن لم تعرف » وكان رسول
الله يرى الفقر فخرا ، ويرى في ادخار المال ما لا يتفق ومقامه من الرسالة.
كان عنده أول ما اشتد به المرض الذي أعقبته وفاته سبعة دنائير ، خاف أن
يقبضه الله اليه وما تزال باقية عنده ، فأمر أهله أن يتصدقوا بها . لكن
اشتغالهم بمرضه أنساهم تنفيذ أمره .. وسأل عنها قبيل وفاته ، فلما ذكرت
عائشة أنها ما تزال عندهم ، طلب اليها أن تحضرها ووضعها في كفه ، وقال :
« ما ظن محمد بربه لو لقي الله وعنده هذه » ثم تصدق بها على فقراء
المسلمين

ولما تمت هجرة المسلمين من أهل مكة الى المدينة ، فأنصرف تفكير
الرسول الى تنظيم صفوف المسلمين وتوكيد وحدتهم ، كان أول ما صنعه
أن دعا المهاجرين والأنصار جميعا ليتآخوا في الله أخوين أخوين .. ثم جعل
لهذا الاخاء حكم اخاء الدم والنسب . ولقد أبدى الأنصار في هذا الموقف
من حسن الايمان ، ما جعلهم يعرضون على المهاجرين أن يشاركوهم
أموالهم .. لكن المهاجرين أبوا أن يعيشوا كلاً على آخوانهم ، ثم كانوا
يجتهدون في الجهد للعيش من الطمأنينة لأنفسهم ولعقيدتهم ، ما لم يكونوا

يجدونه بمكة

فأما الذين لم يجدوا عملاً ، أو لم يكونوا يستطيعونه ، فأولئك أفرد لهم الرسول مكاناً مسقوفاً بالمسجد هو صفته يبيتون به ويأوون إليه ، ولذلك سمو أهل الصفة ، وجعل لهم رزقاً من مال المسلمين الذين آتاهم الله رزقاً حسناً . وهذا بعض الاشتراكية الإسلامية .. وهو يتفق مع ما يقع اليوم حين حدوث بطالة بين العمال في الأمم المتقدمة وقبل أن أنتقل الى تطبيق الاشتراكية الإسلامية في عهد أبي بكر ، أذكر ما حدث حين قسمة النبي في « حنين » فقد كان الخمس من الفىء والغنائم يرد الى رسول الله بحكم القرآن . على أن رسول الله رأى في أعقاب حنين أن يتألف خصومه من أهل الطائف وغيرهم بأن يرد اليهم ما غنمه المسلمون منهم ..

وأخذ هؤلاء المؤلفات قلوبهم من الفىء شيئاً غير قليل ، فخشى المسلمون أن تنقص قسمتهم من الفىء ان أفشى محمد هذه الأعطيات .. لذلك ألحوا في أن يأخذ كل فئة وتهامسوا بذلك . فلما بلغ التهامس النبي ، وقف الى جانب بغير فأخذ وبرة من سنامه ، فجعلها بين أصبعيه ، ثم رفعها وقال : « أيها الناس : والله مالى من فيثكم ولا هذه الوبرة الا الخمس ، والخمس مردود عليكم » وهذه العبارة الأخيرة : « الخمس مردود عليكم » تنطوى على معنى من معانى الاشتراكية لا يفوت أحداً

تطبيق الاشتراكية في عهد أبي بكر

ولما اختار الله رسوله ، وخلفه أبو بكر على المسلمين ، سار سيرته في المساواة بين الناس وفي تنفيذ فكرة الاشتراكية الإسلامية تنفيذاً دقيقاً .. كانت الزكاة تجمع الى بيت مال المسلمين ، فينفق منها ومن الصدقات والمغانم على شئون الدولة فيما يصلح الجيوش وغيرها .. فاذا بقى بعد ذلك شيء ، قسم بين المسلمين بالسوية .. لا يميز منهم حر على عبد ، ولا يميز عربى على أعجمى

وقد اكتشف منجم للذهب على مقربة للمدينة في أراضى بنى سليم ،

فسار أبو بكر في تقسيم الذهب المستخرج منه مسيرته في تقسيم ما بقى من الزكاة وأخماس الفىء والغنائم .. فكان يسوى في قسمته بين السابقين الأولين والمتأخرين في الاسلام وبين الحر والعبد والذكر والأنثى . وقيل له : « ألا تقدم أهل السبق على قدر منازلهم » فكان جوابه : « إنما أسلموا لله ووجب أجرهم عليه ، يوفيههم ذلك في الآخرة ، وإنما هذه الدنيا بلاغ »

هذه النزعة الجديدة الى الاشتراكية ، لم تكن مألوفة عند العرب .. ولذلك كانوا يعترضون على أبى بكر في مساواته هذه في التوزيع بين المسلمين . وكان أبو بكر يحتج بسنة رسول الله ، ويجعل الأخاء والمساواة أساسين جوهرين لنظام هذه الحياة الدنيا كما انهما ركنان من أركان الايمان بالله ، ومن الأسس التى تقوم عليها عبادته جل شأنه ..

الاشتراكية في عهد عمر

ومثل هذه المبادئ الناشئة في جمعية من الجمعيات الانسانية تتأثر في أحيان كثيرة بميول الجمعية . ولهذا عدل عمر بن الخطاب عن سنة أبى بكر في توزيع الصدقات ، وفي توزيع الخمس الذى لبيت المال في الغنائم والفىء .. فقارب العرب في ميولهم لأنه كان متفقاً معهم فيها . من ذلك انه فضل السابقين الى الاسلام في توزيع ما للمسلمين من حق في بيت المال على غيرهم ، كما فضل نساء النبی أمهات المؤمنين ، ثم فضل أهل بيت النبی وذوى قرابته

ولم يبدأ عمر بهذا التفضيل لأول ما تولى امانة المسلمين ، فقد اتبع رأى أبى بكر في التسوية بين الناس حتى تم له فتح العراق .. عند ذلك شاور الناس في التفضيل ورأى انه رأى . وكان يقول : « لا أجعل من قاتل رسول الله كمن قاتل معه » لذلك فرض لكل من السابقين الذين شهدوا بدرا من المهاجرين والأنصار خمسة آلاف ، وفرض لمن لم يشهد بدرا من هؤلاء أربعة آلاف . وفرض لكل واحدة من نساء النبی اثني عشر ألفا ، وفرض للعباس عم رسول الله اثني عشر ألفا ، وفرض لكل من

الحسن والحسين خمسة آلاف ، وفرض لأبناء المهاجرين والأنصار ألفين ، وفرض لمن دون هؤلاء فروضا تختلف وتنزل الى ستمائة درهم وأربعمائة درهم ومائتى درهم

على أن عمر قد أقام على رأى أبى بكر فى أمر الأرض ، فلم ير قسمتها بين المسلمين على أنها غنيمة غنموها ، ولقد كتب الى سعد بن أبى وقاص حين فتح العراق يقول ، بعد أن أمره أن يقسم المال بين من حضر من المسلمين : « واترك الأراضى والأنهار لعمالها ، فإني إن قسمتها بين من حضر لم يكن لمن بعدهم شئ » وإنما قصد بذلك أن تبقى الأرض وما عليها من الرجال للدولة .. يأخذ الرجال مقابل عملهم ، وتأخذ الدولة سائر غلتها لتضمه الى بيت المال ، فتصرف فيه تصرفها فى بيت المال

تطورات جديدة

ظل التطور بعد عهد عمر والخلفاء الراشدين يطرد متأثرا بالفتوح وبالنظم القائمة فى البلاد التى فتحها الله للمسلمين .. وكان اطراد هذا التطور يقتضى تغير الأوضاع الفقهية للملك والخراج والزكاة والصدقة . فأنت ترى فى بعض الأحيان ما يساير الأفكار التى يقول بها أصحاب مذهب اشتراكية الدولة من أنصار اشتراكية العهد الحديث ، وترى فى أحيان أخرى نظما تكاد تتفق وما كان فى عهود الاسلام الأولى .. على أن المسلمين فى كل العهود ، قد اعتبروا طائفة من الحقوق التى تقررها المذاهب الاشتراكية فوق الجدل .. فكما كانوا يبنون المساجد للعبادة ويرونها حقا مشتركا للجميع لا ينازع فيه منازع، كانوا يبنون المدارس للجميع يتعلمون فيها بلا مقابل .. ويرون التعليم حقا مشتركا للجميع لا ينازع فيه منازع ، وكانوا يقيمون موارد للماء يشرب منها كل ظامى .. وكانوا يعتبرون هذا كله وما اليه حقا مسلما به لذوى الحق فى الصدقة ممن ورد النص عليهم فى آيات القرآن الكريم ، كما كانت الصدقة فريضة تعبدية يؤديها ذوو اليسار شكرا لله على ما رزقهم هذا اليسار ، والتماسا منه جل شأنه أن يحفظه عليهم وأن يزيدهم منه

واعتبار الصدقة فريضة تعبدية ، وجعل ما فى بيت مال المسلمين منها
حقا مقررًا لمن فرضه الاسلام لهم ، هو الذى يؤكد معنى الاشتراكية على
ما فهمها فى العصر الأول ، وعلى ما طبقوها فى عهود الخلفاء الراشدين ومن
جاء بعدهم ..



الامم الاسلامية فى العصر الحديث

مرت الأمم الاسلامية فى العصور المختلفة ، بأطوار متفاوتة فى قربها من النظام العربى الذى نشأ مع الاسلام ، واستمد أصوله من البيئة العربية .. وفى بعدها عن هذا النظام وقربها من النظم التى كانت تحيط بالعاصمة الاسلامية حين كان للمسلمين عاصمة معترف بها منهم جميعا ، وبأقوى العواصم الاسلامية حين تعددت هذه العواصم وتنافست .. واستقلت بعضها بالخلافة على المسلمين وخرجت بعضها عن سلطان الخليفة وحكمه كان ذلك شأن هذه الأمم فى نظامها السياسى ، وفى نظامها الاجتماعى ، وفى نظامها الاقتصادى .. ولئن ظلت كلها خاضعة لأحكام القرآن الكريم فى ايمانها وعباداتها . لقد كان لاجتهاد الفقهاء وكبار العلماء أثره البالغ فى التطور من نواحيه المتصلة بنظم الحياة الاجتماعية . ولن يزال ذلك شأنها اليوم وفى المستقبل كما كان شأنها فى الماضى .. فما جاء بالقرآن من نظم هذه الحياة الاجتماعية ، لم يتعد المبادئ العامة كما قدمنا وتفصيل هذه المبادئ وتوجيهها كان ولا يزال مصدر تطورها واتصالها بسائر أمم العالم وبالحضارة القائمة فيه

ولقد عم الحكم المطلق الأمم الاسلامية ، حين ساد هذا النظام أمم العالم كله .. أما اليوم فالأمم الاسلامية تؤمن كلها بالمبادئ الديمقراطية ، وتراها وحدها المتفقة مع مبادئ الاسلام الأساسية ، ومع ما قرره هذه المبادئ من قواعد الأخاء والحرية والمساواة

على أن تغير النظم التى أظلت العالم الاسلامى فى مختلف العصور لم يغير المبدأ العام للحياة الاقتصادية ، ولا الأساس الذى تقوم هذه الحياة عليه .. فقد ظلت هذه الحياة دائما مزاجا من الفردية والاشتراكية لذلك ظل الملك والأسرة والميراث أسسا جوهرية لحياة هذه الأمم ، وظلت لليتامى والفقراء والمساكين وأبناء السبيل وغيرهم ممن نص الكتاب

الكريم عليهم حقوق مقررة في بيت المال تقتضى من الزكاة ومن الصدقة ..
كما ظل في مال كل مؤمن حق معلوم للسائل والمحروم

الاشتراكية في العبادات

وما كان لهذه القواعد أن تتغير أو تتبدل وهي متصلة بالايان بالله كما
قدمنا ، وما كان للاشترائية الاسلامية أن تزول أو تضعف ولها في سائر
مظاهر الايمان والعبادات المترتبة عليه نصيب واضح . ولقد أشرنا الى
الزكاة والصدقة واتصال هذه الاشتراكية واضح في صلاة الجماعة ، وفي
الصوم ، كما أن فريضة الحج تنطوي على معانى الاشتراكية الاسلامية ..
حتى لا يبالغ من يقول انها أوضح مظهر لهذه المعانى جميعا

فالتفاوت بين الناس يسقط أثناء هذه الفريضة ، فلا يبقى له أثر في
لباسهم .. ولا في زينتهم ، ولا في أى من مظاهر حياتهم . هم أثناء طوافهم
بالكعبة وسعيهم بين الصفا والمروة وقيامهم على عرفات واقامتهم بمنى ،
صورة قوية الدلالة على زوال التفاوت ، وعلى سعادة الانسانية بهذا
الزوال . ودلالة هذه الصورة أقوى وأكثر صراحة في أن التفاوت النفساني
أعظم من التفاوت المادى

هذا كله جعل الاشتراكية الاسلامية تبقى قوية عميقة القواعد في نفس
كل مسلم . ولقد كانت واضحة الأثر ، منذ نصف قرن ، في الأمم
الاسلامية . وتطورت صورها في هذا القرن العشرين حتى كادت تخفى عن
الاعين . وسبب هذا التطور شدة اتصال الأمم الاسلامية بالغرب وأخذها
بمبادئه وبحضارته . والاشترائية الاسلامية مع ذلك باقية ، وأنا واثق بأن
التطور في حياة الأمم الاسلامية سيعيدها على أساس من القواعد التي
عرفها أهل الصدر الأول وأهل العصور الأولى للإسلام

ولقد يعجب بعضهم لقولى أن الاشتراكية الاسلامية كانت واضحة الأثر
الى خمسين سنة مضت .. لكن الواقع هو ما أقول . والذين عاشوا خلال
الحقبه الأخيره من القرن الماضى وهم لحسن الحظ كثيرون ، يذكرون أن

السجايا الاسلامية التى كانت متداولة بين المسلمين الأولين من أهل شبه جزيرة العرب كانت متداولة فى مصر .. فكان الذين آتاهم الله رزقا حسنا يشعرون بما عليهم للفقير واليتيم والمسكين وابن السبيل من حق واجب الأداء لرضا الله .. وكان مظهر ذلك باديا فى نواحي الحياة بوجه عام

ولقد كان أكثر وضوحا فى شهر الصوم من كل سنة ، حتى لقد كان أهل القرى لا يتناول أحدهم طعامه داخل داره ، بل أمام الدار .. ويرى حقا نكل من يمر به - عرفه أو لم يعرفه - أن يجلس معه وأن ينال من هذا الطعام كفايته . هذا الى أن من آتاهم الله رزقا حسنا ، هم الذين كانوا يتكفلون بالمرافق العامة للقرية .. فكان الأذكاء من أبناء الفقراء يتعلمون على نفقتهم ، وكان المرضى موضع عنايتهم ورعايتهم ، وكان فى مالهم حق معلوم للسائل والمحروم ، وكانوا يرون أداء هذا الحق واجبا يحاسبهم الله ويجزيهم عليه

ولقد قلنا من قبل أن الاسلام حرم الربا على أساس اشتراكى مقبول ، ذلك ألا يستغل من لا يعمل ثمرات العمل الذى يقوم به غيره . وكلنا لا نزال نذكر أن الربا كان الى عهد قريب بغيضا الى النفس الاسلامية أشد البغض ، وان المسلمين جميعا كانوا لا يفتأون يذكرون قوله تعالى : « يمحق الله الربا ويربى الصدقات » وقوله جل شأنه : « الذين يأكلون الربا انما يأكلون فى بطونهم نارا وسيصلون سعيرا »

وكان العمل بهذه المبادئ متبعا فى الأمم الاسلامية فى هذا الزمن القريب الذى أشير اليه .. وكان القرض الحسن وانظارذى العسرة الى ميسرة ، بعض ما يراه صاحب المال واجبا عليه لمن كان فى حاجة الى هذا المال

تطورت هذه الأخلاق فى مصر ، وتطورت فى غير مصر من الأمم الاسلامية . وكان من أثر هذا التطور أن كانت هذه الاشتراكية تخفى عن الأعين ، فلم يبق لها مظهر الا فى الجمعيات الخيرية التى تألفت لتسد الأغراض التى جنى عليها هذا التطور .. على أن ما نراه فى مصر وفى غير مصر ، يدل على أن هذه الأمم الاسلامية تلتبس فى نظمها الجديدة وسيلة

يتحقق بها هذا المزاج بين الفردية والاشتراكية على النحو الذى قرره الاسلام منذ عهوده الأولى

وآية هذا الاتجاه ، ما هو واضح من حرص المسئولين فى الشئون العامة ، على العناية بشئون الطبقات الفقيرة عناية تقوم الدولة بأعبائها . ولم يعارض أحد هذه النزعة التى تحقق المزاج بين الفردية والاشتراكية . وهذا الاجماع صريح فى الدلالة على أن الفكرة أصيلة فى النفس الاسلامية ، متصلة فيها بالعقيدة وبالمبادئ الانسانية العامة التى تدعو هذه العقيدة اليها

هذا واقع بالفعل لا ينكره أحد ، وباجماع لا يخرج عليه أحد .. على أن ثمت أمر يتصل به يستوقف النظر ، وهو فى رأى جدير بالاعجاب والتقدير . ذلك ان الذين يدعون هذه الدعوة ويتحمسون لها فى الأمم الاسلامية ينادون بها على أساس مدنى بحت ، ويعتبرونها تنظيما للحياة الاجتماعية والاقتصادية متصلا بشئون الحياة الدنيا ، ينطبق عليه الحديث النبوى : « أنتم أعلم بأمور دنياكم » وأنت تراهم لذلك لا يتقيدون فيه الا بما يحقق المصلحة العامة على النحو الذى يهديهم اليه تفكيرهم .. مستمدين من شئون الحياة فى تطوراتها الحاضرة بحكم الحضارة القائمة ما يتفق والمبادئ الانسانية السامية القائمة على أساس من قواعد الخلق السليم المتصل فى نفوسهم بحكم ضمائرهم ..

وهذا الاتجاه المدنى متفق مع المنطق الاسلامى الذى يجعل العقل حكما فى كل شئ ، حكما فى الايمان نفسه . وذلك قول المغفور له الأستاذ الامام الشيخ محمد عبده : « ان المرء لا يكون مؤمنا الا اذا عقل دينه وعرفه بنفسه حتى اقتنع به .. فمن ربح على التسليم بغير عقل ، والعمل ولو صالحا بغير فقه ، فهو غير مؤمن . فليس القصد من الايمان أن يذلل الانسان للخير كما يذلل الحيوان .. بل القصد منه أن يرتقى عقله وترتقى نفسه بالعلم ، فيعمل الخير لأنه يفقه أنه الخير النافع المرضى لله ، ويترك الشر لأنه يفهم سوء عاقبته ودرجة مضرته »

وتفكير المفكرين من أهل الأمم الإسلامية في التنظيم الاقتصادي على أساس مدني تعينه المصلحة العامة ، قد كان سائدا بين المسلمين منذ العصور الأولى .. لا تقيده الا المبادئ العامة المقررة في كتاب الله . ومن هذه المبادئ الأساسية ، قيام الملك الخاص والأسرة والميراث .. أما المرافق العامة العامة فيجب أن تكون ملكا عاما مشاع النفع بين الناس جميعا . وتحديد المرافق العامة متروك أمره للدولة ، وهو لذلك مدني بحث

وقد وقع الخلاف على هذا التحديد منذ العصور الأولى للإسلام ، فكان من أصحاب النبي من يجعل الأرض وما تحتويه مرفقا عاما كالماء والهواء ، وانما يقع التملك على ثمراتها ينال منها كل على قدر سعيه ومجهوده . وهذا رأى آحاد كما يقول المحدثون .. أما الرأى الذى ساد دائما فيقول بتملك الأرض واعتبارها من العروض التى يقع عليها التبادل

ولو أننا التمسنا في تفكير المسلمين الأولين قاعدة منطقية عامة ، يمكن الاهتداء بها الآن في تقدير الاشتراكية الإسلامية واتجاهها لوجدنا هذه القاعدة : يجب على كل انسان أن يبذل للجماعة كل كفاياته ، ويجب على الجماعة أن تبذل لكل فرد منها ما يسد حاجاته مما تقصر عنه ثمرات عمله .. فلكل مسلم حق في أن ينال من بيت مال المسلمين ما يكفل حاجاته وحاجات من يعول ما دام لا يجد عملا يرتزق منه ، أو ما دام العمل الذى يزاوله غير كاف لرزقه ورزق عياله

وهذه القاعدة العامة الثابتة في نفوس المسلمين، هى التى تدعو مفكرهم اليوم الى تنظيم المزاج بين الفردية والاشتراكية تنظيما مدنيا متفقا مع تطورات الحياة في هذا العصر ، بحكم الحضارة القائمة في العالم . وهم لذلك يطلقون أنفسهم من كل قيد حين هذا التفكير ، وان لم يفكر أحدهم في تخطى المبادئ العامة التى وضعها القرآن الكريم ، والتى يؤمن كل مسلم بأنها أساسية للحياة متفقة مع الفطرة الانسانية وطبائع الجماعات

والتفكير على هذا النحو في العصر الحاضر ، يعتبر تفكيراً حديثاً في العالم الإسلامي . وهو كما قدمت لا يرجع الى أكثر من أوائل هذا القرن العشرين .. لذلك لا يمكن التكهن بمداه ولا بنتائجه .. فلندعه يسير في طريقه مطمئنين الى انه لن يعدو في يوم من الأيام هذا المزاج الصالح بين الفردية والاشتراكية ، وانه سيكون وسيلة سريعة الأثر في تقدم الأمم الإسلامية ورفقيها



- ٢ -

الإسلام والديموقراطية

- * المبادئ العامة
- * التشريع والقضاء
- * صور الحكم الديمقراطي
- * الحياة الدولية

المبادئ العامة

يختلف نظام الحكم في الأمم الديمقراطية .. ويرجع اختلافه الى تاريخ هذه الأمم حيناً ، والى طباع أهلها أو نظامهم الاقتصادي حيناً آخر .. فنظام الحكم في إنجلترا برلماني وفي أمريكا نيابي . والتقاليد البرلمانية في إنجلترا تختلف عن مثلها في فرنسا .. ومع ذلك تتفق هذه الأمم في المبادئ الأساسية التي يقوم عليها نظام الحكم فيها ، والتي يؤمن أبنائها بضرورتها لسعادة أممهم ورفقيها ..

وفي مقدمة هذه المبادئ حكم الشعب نفسه عن طريق التمثيل الصحيح والمناقشة الحرة والتسليم برأى الأغلبية .. على أن هذه المظاهر التي تمثل مجتمعة نظام الديمقراطية في الحكم ، تقوم على أساس من مبادئ سبقتها ، هي التي تعارف الناس على تسميتها حقوق الانسان ، والتي جمعها الفرنسيون في شعارهم : الحرية والأخاء والمساواة

إذا أردنا أن نعرف نظام الحكم في الاسلام ، وجب علينا أن نرجع الى المبادئ الأساسية التي قررها ، وجعلها أساس الحياة الانسانية . ومتى عرفنا هذه المبادئ ، واستقرت في أذهاننا ، لم يبق لدينا ريب في أن الاسلام والديمقراطية يلتقيان في الأمور الجوهرية جميعا ، وان نظام الحكم في الاسلام يجب أن يكون في صورة أو أخرى من صور الحكم في الأمم الديمقراطية في عصرنا الحاضر ، وان كل نظام لا يقوم على أساس من حرية الفرد وتضامن الجماعة وحق الشعب في حكم نفسه عن طريق المناقشة الحرة والانتهاه الى رأى الأغلبية .. كل نظام لا يقوم على أساس من هذه المبادئ التي تدعو الديمقراطية اليها ، لا يتفق والقواعد الأساسية التي قررها الاسلام ودعا اليها ، ولا يتفق وواجب المسلم في التمسك بقواعد دينه والدفاع عنه

وقد ألف كثير من الذين يتعرضون لهذا الموضوع ، ويؤيدون الرأى

الذى نقول الآن به ، أن يستندوا الى بعض آيات القرآن الكريم كقوله تعالى : « وشاورهم فى الأمر » وقوله : « وأمرهم شورى بينهم » ثم يكتفون بها فى التدليل على رأيهم . وهذا الدليل لاريب قائم وله قوته ، وبخاصة أنه نص من كتاب الله .. على أن جماعة من المسلمين فى عصور مختلفة ، قد لجأوا لأغراض خاصة الى تفسير هذه الآيات بما يلائم أغراضهم .. فلا بد لذلك من أن نرجع الى المبادئ العامة للإسلام ، لنرى كيف تتوج هذه الآيات تلك المبادئ ، ولنتبين أن نظام الحكم القائم على الشورى الإسلامية يجب أن يتحقق به للناس حظ من الحرية والأخاء والمساواة يعادل أو يزيد على ما تحققه لهم النظم الديمقراطية كما نفهمها فى عصرنا الحاضر

مبدأ الأخاء

ولنبداً بمبدأ الأخاء .. لقد ذهب الاسلام فى تقرير هذا المبدأ الى أبعد مدى . فهو لم يضع له حداً من الحدود ، ولم يقيم فى سبيله عقبة من العقبات . لم يجعل الجنس ولا اللغة ولا اللون سبباً فى التباعد بين الناس ، ولم يفضل العربى على العجمى كما يفضل بعضهم الآرى على السامى ، ولم يفضل الأسمر أو الأبيض على الأسود ..

والقرآن الكريم صريح فى تقرير مبدأ الأخاء اذ يقول : « انما المؤمنون اخوة » ، واذ يقول : « يا أيها الناس انا خلقناكم من ذكر وأنثى وجعلناكم شعوباً وقبائل لتعارفوا أن أكرمكم عند الله أتقاكم » والحديث عن النبى عليه السلام : « انه لا فضل لعربى على عجمى الا بالتقوى » فالناس فى اسلامهم اخوة لا يتفاضلون الا بالأعمال الصالحة ، ولا يميز بعضهم عن بعض غيرها ، وان اختلفوا لونا ولغة وجنسا ومذهباً

والاخاء فى الاسلام ليس حديثاً يجرى به اللسان ، أو مظهراً من مظاهر الجمالة وكفى .. بل هو مبدأ أساسى وعقيدة يجب أن تقوم بالنفس ، وأن تكون لها آثارها فى أعمال الانسان أو يكون ضعيف الايمان ..

ولا أحسب تصويرا لهذا المعنى بلغ في قوته قول رسول الله : « لا يكمل إيمان أحدكم حتى يحب لأخيه ما يحب لنفسه » . وأول المحبة الاحترام ومظهرها الاسمى الايثار على النفس . فاذا لم أحترم أخى لأنه من جنس غير جنسى ، أو لأنه يتكلم لغة غير لغتى ، فأنا ضعيف ناقص الاسلام .. واذا أنا لم أوثر أخى على نفسى فيما هو بحاجة اليه ، فأنا ضعيف الايمان ناقص الاسلام . واذا أنا قامت الكراهية بنفسى للناس فحققت عليهم فأنا ضعيف الايمان ناقص الاسلام . فأما الذى يجب أخاه ويرجو له ما يرجوه لنفسه ، فذلك بين المسلمين رجل كمل إيمانه وتمت عليه نعمة الله ولا أخال مذهبا من المذاهب ، بلغ في تصوير الأخاء ما بلغه المسلمون . ولست أدل على ذلك بأقوال المتأخرين الذين لعلمهم تأثروا بالفلسفة اليونانية أو بغيرها من المذاهب التى نقلت الى العربية فى العصور الزاهرة للأمم الاسلامية ، وانما أدل على أعمال النبی العربى وبأعمال أبى بكر وعمر ..

فلم يرض النبی ، على اكبار المسلمين له وتقديسهم إياه ، أن يظهر فى مظهر السلطان أو الملك أو الرئاسة الزمنية حين تم له السلطان فى شبه جزيرة العرب كلها ، بل كان يجلس من أصحابه حيث ينتهى به المجلس ، وكان يجيب دعوة الحر والعبد والأمة والمسكين ، ويعود المرضى فى أقصى المدينة ..

وكان أبو بكر فى خلافته أخا لكل الناس صغيرهم وكبيرهم ، وكذلك كان عمر .. بل لقد كان النبی وصاحبا يرون الضعفاء أحق بأخائهم من الأقوياء ، فكانوا لا يضمنون به على أحد ويرونه الأساس الأول للتضامن الاجتماعى

والحق انى لا أستطيع أن أفهم التضامن الانسانى الذى ننشده جميعا ، وندعو اليه بكل قوتنا ، حتى يتحقق هذا الأخاء بين الناس ، ويتحقق أخاء مثله بين الأمم .. وحتى يشعر كل فرد وتشعر كل أمة شعورا صادقا قويا ، بأن واجب الأخاء يقتضى أن يجب المرء لأخيه ما يحب لنفسه

أما المساواة في الاسلام ، فهي المثل الأعلى في تصور المساواة .. ليست هي المساواة أمام القانون وكفى ، بل هي تتناول ذلك وتسمو عليه .. هي المساواة أمام الله . وهذه المساواة لا يجنى عليها التفاوت في الرزق ، ولا التفاوت في العلم ، ولا التفاوت في عرض من أعراض الدنيا ..

ولم أر في حياتي مظهرا للمساواة أعمق أثرا في النفس من عشرات الألوف من المصلين مجتمعين حول الكعبة في المسجد الحرام ، يتوجهون كلهم الى الله ، ويعلمون كلهم أن ما بينهم من تفاوت في المال أو الجاه أو السلطان يتضاءل ويذوى ويصبح لا شيء في هذا الموقف الرهيب الجليل الذي يشعر فيه كثيرون ممن تزدهيهم الحياة ، بأن غيرهم ممن هم دونهم مالا وجاها وسلطانا أقرب الى الله منهم بطهارة نفوسهم وصالح أعمالهم .. اذا كان الايمان بفكرة المساواة أمام القانون بعض أركان الديمقراطية ، فما عسى يكون جلال الايمان بفكرة المساواة أمام القوة العلبا مصدر القانون ومصدر كل شيء ، قوة باري الكون ومدبره

الحرية أعز مبادئ الاسلام

أخرت الكلام عن الحرية في الاسلام لأختتم بها هذا الحديث ، ولأن هذه الحرية أعز مبادئ الاسلام منذ نشأته

والحرية تعرف اليوم بما لك من حق في أن تصنع ما تشاء ، ما دمت لا تؤذي غيرك ولا تعتدي على حريته . ولست أرى فرقا بين هذا التعريف وبين قول المسلمين : المسلم من سلم الناس من لسانه ويده . والواقع أن الاسلام يقرر الحرية للناس كاملة الا فيما يوجب الشرع عليه الجزاء ، شأنه في ذلك شأن غيره من الشرائع في كل الأزمان ، وفي هذا الزمن الذي نعيش فيه

على أن أهم صورة للحرية المقصودة في شعار الثورة الفرنسية ، انما هي حرية التفكير وحرية الرأي والتعبير عنه . وليس يبالغ من يقول أن

هذه الحرية مقررة في الاسلام بأوسع صورها ومعانيها .. ولا أدل على ذلك من قيام المذاهب الأربعة بين أهل السنة من المسلمين ، واحترامهم إياها جميعا .. على ما بينها من اختلاف في التفكير والرأى . وهذه المذاهب قررها الأئمة الذين يعترف المسلمون جميعا بفضلهم ، وحسن إيمانهم ، وعلو مكانتهم ..

ولا تنس أن المذاهب الأربعة تتناول أحكام الشريعة على ما قررته قواعد أصول الدين . فإذا جاز الاختلاف في هذه الأحكام وصح الاجتهاد في أمرها ، فما بالك بما سواها مما لا يتصل بها من الآراء والمذاهب .. ان حرية الرأى والتعبير عنه مطلقة فيه اطلاقا لا حد له الا العقل والعلم وإذا كان قيام المذاهب الأربعة دليلا على حرية الرأى ، حتى في المسائل الشرعية .. فان ما تركه فلاسفة الاسلام من أمثال ابن رشد والغزالي وابن سينا والفارابى وغيرهم ، يسقط كل حجة يمكن أن يتذرع بها من يرى غير رأينا

أحسبني بما تقدم قد أقمت الدليل على أن شعار الديمقراطية ، متحقق في الاسلام على أتم وجه وأكملة ، كما أقمت الدليل على أن هذه المبادئ أساسية في الاسلام مثلها في الديمقراطية سواء . أما النتيجة اللازمة لهذه المبادئ في نظام الحكم أن يقوم في صورة من صور الحكم الديمقراطى المختلفة ، فالشورى الاسلامية واحدة من هذه الصور لاريب ، والدفاع عنها دفاع عن مبدأ اسلامى سليم

على أن النقاء الاسلام والديمقراطية في الأمور الجوهرية لا يقف عند هذه المبادئ العامة بل يتناول غيرها مما يتصل بها أو يترتب عليها

التشريع والقضاء

الحرية ، والأخاء ، والمساواة ، شعار الديمقراطية الحديثة .. وهى كذلك من المبادئ الأساسية فى الاسلام . ذلك ما أقمنا عليه الدليل . وهذه المبادئ المترتبة على الحقوق الطبيعية للانسان فى الديمقراطية وفى الاسلام جوهرية للجماعة بمقدار ما هى جوهرية للفرد . وهى بهذه المثابة أساس التضامن الاجتماعى ، وأساس النظام الذى يقوم عليه الحكم سواء فى الديمقراطية أو فى الاسلام

وقد أشرنا الى أن هذه المبادئ ، تقتضى حتما حكم الشعب نفسه ، عن طريق التمثيل الصحيح والمناقشة الحرة والتسليم برأى الأغلبية .. وأول مظهر لهذا الحكم انما يتجلى فى التشريع وفى القضاء . فليس من حق فرد بالغة ما بلغت مكائته من السمو ، أن يشرع للمجموع على كره منه أو أن يلزم الشعب قوانين تأبأها ارادته الحرة ..

وليس من حق فرد ، بالغة ما بلغت مكائته ، أن يجعل ارادته المطلقة فيصلا فى القضاء بين الناس .. بل لابد للقضاء من قواعد يجرى عليها ، تتفق وارادة الشعب وتكفل حقوقه الطبيعية . ولا بد للقضاة من استقلال ، يجعلهم اذ يحكمون لايرعون فى قضائهم الا القانون وقواعد العدل وما ترضاه ضمائرهم النزيهة الطاهرة . وهذه القواعد التى تقررها الديمقراطية الحديثة هى بعينها القواعد التى يقررها الاسلام

ولعلك اذا رجعت الى قواعد القضاء والتشريع فى الأمم الاسلامية ، رأيتها أقرب ما تكون فى صورتها لقواعد القضاء والتشريع فى انجلترا فى عهدهما البرلماني الذى يمثل مبادئ الديمقراطية أصح تمثيل .. فقد ألف الناس فى انجلترا الى عهد قريب جدا ألا يقوم العدل على قواعد من التشريع البرلماني ويلجأ الى تغييرها من حين الى حين حسب ما تقتضى به الظروف

وانجلترا لم تألف هذا التقليد الفرنسى فى التشريع الا من عهد قريب .. وهى لم تألفه الا فى المسائل الاجتماعية المتصلة بالسلطة العامة أكثر من اتصالها بمعاملات الأفراد وعلاقاتهم بعضهم ببعض . أما فيما خلا ذلك ، فمرجع التشريع الانجليزى الى أحكام القضاء التى تثبت قواعدها على الزم فبرضاها الناس ويتخذونها شرعا لهم فى معاملاتهم ، ثم تصبح فى انجلترا كلها قانونا يطبق على الجميع ويسترشد به القضاة للفصل فيما يعرض عليهم من المنازعات

وأنت اذا أردت أن ترجع الى كتاب من كتب القانون فى انجلترا ، لأمر يتعلق بالمعاملات المدنية أو التجارية أو بالعقوبات أو الشؤون الدولية الخاصة والعامة ، فأكثر ما تقع عليه من الكتب التى تكشف لك عما تبحث عنه كتب القضاء وأحكامه ، وما تنطوى عليه هذه الأحكام من مبادئ ، تطبق فى القضايا المماثلة فى أنحاء الدولة جميعا

هذا النظام بعينه ، كان ولا يزال الأساس للقضاء وللغة عند المسلمين .. فكتب الفتاوى هى المرجع الأول للأحكام . وأنت اذا أردت أن تبحث موضوعا فقها أو قضائيا ، فأكثر ما ترجع اليه كتاب ابن عابدين والفتاوى الحامدية والفتاوى الهندية وما إليها اذا كنت تريد أحكام الفقه الحنفى .. ومثل هذه الكتب تماما ، هى ما نرجع اليه لمعرفة أحكام المذاهب الأخرى . وهذه الكتب كلها من طراز الكتب الانجليزية التى أشرنا إليها .. فكلها تذكر قضايا فصل فيها القضاة برأى ، أصبح مبدأ تشريعا مسلما به ، وأصبح لذلك مرجعا للقضاة ولجميع المشتغلين بالقانون والفقه من بعد والقاضى العادل فى البلاد الاسلامية ، كان ولا يزال يتمتع بالمكانة والاستقلال اللذين يتمتع بهما القاضى العادل فى الدول الديمقراطية جميعا . ليس لأحد على هذا القاضى سلطان ، وسلطانه نافذ فى الناس جميعا . وما دام الناس مطمئنين الى عدله ، فله أن يجتهد فى قضائه ما وجد الى الاجتهاد سبيلا ..

فاذا رأى يوما أن يعدل عن رأى رآه سلفه من القضاة الذين شهد لهم

الناس في عصرهم بالنزاهة والعدل ، بل اذا رأى يوما أن يعدل عن رأى رآه هو من قبل .. اقتناعا منه بأن رأيا غيره أدنى الى الحق والى تحقيق المنفعة العامة ، كان بعمله هذا يؤدي واجبا ذا قيمة في الحياة الفقهية ، ما دام هذا الرأى قائما على القواعد السليمة المقررة للعدل بين المسلمين والواجب الذى يؤديه القاضى في هذه الناحية هو أداة التطور الفقهى ، وهو الذى يجعل الفقه كفيلا دائما بأن يحقق الرخاء والأمن والسلام في حدود الحق والعدل

وفرنسا التى درجت ، منذ قرن ونصف قرن على الأقل ، على سنة التشريع المقنن .. تعتبر الفتاوى وأحكام القضاء مناهل أساسية لحياة العدالة . ومجموعات دالوز وسيرى ، وكتب جارسون وأمثاله ، تقيد الأحكام والفتاوى على النحو الذى قيد به المسلمون من قبل أحكام قضائهم وفتاوى مفتيهم ، وتتخذ منها مرشدا لقواعد العدل ولتطور التشريع ..

الاسلام وتطور التشريع

يحاول بعضهم أن يصور الاسلام تصويرا لا يتفق مع ما قدمنا ، ويذكر سندا لرأيه أن التشريع والقضاء في الاسلام مقيدان بالقرآن الكريم تقييدا يحول دون التطور الذى يقضى به النظام الديمقراطى . وهذا الرأى خاطئ ، ان كان صادرا عن حسن نية .. فالفقه الاسلامى يعتمد على القرآن الكريم اعتمادا أساسيا . هذا صحيح ، لكن ما ورد في القرآن من التشريع لا يتخطى القواعد العامة التى تقرها قواعد العدالة مصورة في مثلها الأعلى .. والقواعد العامة الواردة في القرآن قليلة ، لم تتناول من التفاصيل الا أمورا بذاتها محصورة العدد جدا . ولهذا رأى المسلمون منذ العصر الأول ، أن يجعلوا مصادر الفقه والتشريع أربعة : الكتاب ، والسنة ، والقياس ، والاجماع ، وأن يكلوا الى القاضى تطبيق هذه القواعد مع مراعاة أدق صور العدالة

والسنة في الفقه الاسلامي هي ما تواتر من الأحكام عن رسول الله .. وليس يتسع المقام للحديث عما ثبت بالتواتر من هذه الأحكام . وحسبنا أن نذكر ما روى عن رسول الله صلى الله عليه وسلم أنه قال : « انكم ستختلفون من بعدى ، فما جاءكم عنى فاعرضوه على كتاب الله .. فما وافقه فمضى ، وما خالفه فليس عنى »

وقد قال ابن خلدون ، وهو يتكلم عن الحديث : « لو انتقدت الروايات — يقصد روايات الحديث — من جهة فحوى متنها ، كما تنقد من جهة سندها ، لقضت المتون على كثير من الأحاديث بالنقض . وقد قالوا ان من علامة الحديث الموضوع ، مخالفته لظاهر القرآن أو القواعد المقررة في الشريعة أو للبرهان العقلى أو للحس والعيان وسائر اليقينيات »

أما الأصل الثالث من أصول الفقه ، وهو القياس ، فمرجعه العقل ومنطقه ، وإلى العلم بالكتاب والسنة

بقى الأصل الأخير وهو الاجماع .. وهذا الأصل هو الظاهرة الديمقراطية الواضحة التى تدل على أن حق الشعب فى الحكم ، وفى التشريع ، مقرر فى الاسلام على وجه لا يحتمل مناقشة أو جدلا . ولو أنك رجعت الى كتب الأصول والفقه ، لتبينت أن القواعد التى تسير عليها ديمقراطية هذا العصر فى التشريع والتى ترمى دائما الى الملاءمة بين المنطق العقلى والعدل وبين حاجات الناس ومنافعهم — هى بعينها القواعد التى قررتها هذه الكتب الاسلامية

يجب علنى أن أعترف مع هذا الذى قدمت ، بأن القواعد التى وردت فى القرآن — وان تكن قواعد عامة — هى قيد للمشرع . وذلك هو ما دعا بعضهم الى الظن بأنها لا تدع للارادة العامة ، الحرية فى التشريع والحكم . لكن التاريخ أثبت أن هذه القواعد ضرورية لحياة الديمقراطية ، فلا يمكن الخروج عليها

خذ مثالا لذلك ، المبادئ الاقتصادية المقررة فى كتاب الله .. هذه المبادئ لا ترضى عن الفردية المطلقة القائمة على أساس من الأنانية الذاتية

التي لا حد لها ، بل هي تدعو الى نوع من الاشتراكية جدير بأن يطلق عليه اسم الاشتراكية الاسلامية . لكن هذه الاشتراكية الاسلامية ، لا تتعدى ما يقتضيه تضامن الجماعة ، وتدعو اليه مبادئ الرحمة الانسانية التي تعتبر في الاسلام قاعدة مقرررة لا كمالا نفسيا وكفى ..

ثم ان هذه المبادئ الاقتصادية المقررة في القرآن ، تأبى اباة صريحا أن تزيد الاشتراكية على هذا القدر ، وترفض رفضا باتا هدم الملكية الخاصة ، وهي لذلك تقف في وجه المبادئ الشيوعية التي قررها كارل ماركس بكل قوة وشدة

ومثل آخر من المبادئ التي قررها القرآن ، يتصل بالأسرة ويدخل ائلك في نطاق الحياة الاجتماعية . فالزواج والأبناء والتوارث من الأمور التي لا يصح للمسلمين الخلاف على مبدئها ولا على ما ورد في القرآن عنها .. فاذا اعتبرت هذه المبادئ وأمثالها قيذا لارادة الشعب في التشريع ، فهو قيد تقتضيه الحياة الديمقراطية ..

وها نحن أولاء نرى أن ما يخالف هذه المبادئ قد استحال قيامه في انجلترا وفرنسا وأمريكا والديموقراطيات كلها ، وانه حيث قام ألغيت المبادئ العامة للديموقراطية ، مبادئ الحرية والأخاء والمساواة ، وقامت مقامها مبادئ الطغيان والحكم المطلق ..

ولو أن الطغيان رفع عن كواهل الأمم التي قامت فيها المبادئ التي تخالف ما أسلفنا مما قرر القرآن الكريم لرأيت الناس يعودون الى هذه المبادئ شيئا فشيئا ، لأنها من فطرة الانسان ، كما أن الحياة الديمقراطية من فطرته

لا عجب بعد الذي قدمنا ، أن تنزع الشعوب الاسلامية كلها في العصر الحاضر الى ناحية الديمقراطية ، وأن تجعل تشريعها على النظام الديموقراطي وسيلتها للحياة وللرقى والتقدم .. وهي اذ تنزع هذا المنزع عن ايمان بالديموقراطية ، يؤدي بها الى الدفاع عنها بكل قوتها ، انما تؤيد حكم الاجماع في حدود القواعد التي نص عليها القرآن الكريم ..

وهى فيما تصنع من ذلك لا تخالف تاريخها ولا تخرج عليه ، وإنما تسير فى طريق التطور الطبيعى للحياة الانسانية . فقد كان حكم الشعب نفسه ، أساسا للحكم الاسلامى منذ العهد الأول . وإنما اختلفت الصور التى صور فيها نظام هذا الحكم باختلاف العصور ، كما جاءت عصور مظلمة أساءت اليه وجنت عليه



صور الحكم الديموقراطى

تختلف صور الحكم الديموقراطى فى العصر الحاضر بين النظام النيابى، والنظام البرلمانى ، كما تختلف بين الملكية والجمهورية . على أن هذه الصور ليست قديمة العهد ، وانما ترجع الى ثلاثة قرون أو نحوها فى انجلترا ، وترجع الى عهد الثورة الفرنسية فى فرنسا ، وإلى عهد الاستقلال فى أمريكا

أما اذا نحن رجعنا الى صور الحكم الديموقراطى فى العصور القديمة ، وبخاصة فى اليونان ، فقلما نجد هذا الحكم ممتدا فى أمة يبلغ عددها الملايين .. وانما نجده على الأغلب فى مدن أو مقاطعات محصورة العدد على نحو ما نعهده اليوم فى سويسرا . لكنه كان محتفظا دائما بالمبدأ الأساسى الذى تقوم عليه الديموقراطية ، مبدأ حكم الشعب نفسه عن طريق التمثيل الصحيح والمناقشة الحرة وإقرار رأى الأغلبية

ونحن اذا رجعنا الى الحكم الاسلامى فى عهوده الأولى ، أى منذ ألف وثلثمائة سنة وأكثر ، وجدنا المبدأ الأساسى للديموقراطية مبدأه ، ورأينا الصور التى تصور فيه تختلف بعض الاختلاف عما نعهده اليوم فى نظم عصرنا الحاضر ، ولكنها تتفق وإياها فى الغاية وفى المبدأ

ولا غرابة فى ذلك ، فقد نشأ الاسلام فى بلاد العرب ، وكان كتابه عربيا ، وكان رسول الله به عربيا . وقد كانت بلاد العرب فى ذلك العصر تعيش فى نظام ديمقراطى بحت ، أدنى الى نظام سويسرا اليوم وإلى نظام المدن اليونانية القديمة . ولقد كانت الحرية التامة أعز شىء على العربى ، بدويا كان أم حضريا

وكان أهل القبيلة أو أهل المدينة يجتمعون للنظر فى شئونهم العامة ، وللقضاء فيما يقوم بينهم من المنازعات . وكانت دار الندوة بمكة ، مكان هذا الاجتماع بالنسبة للمدينة الاسلامية المقدسة من عهد ابراهيم .. فكان

طبيعيا أن ينعقد نظام الحكم في الاسلام على هذا الأساس العربى الصريح ، وأن يكون ديموقراطيا بالمعنى الذى يفهمه العربى من الألفاظ التى ترادف هذه الكلمة فى لغة ذلك العصر .

وأنت اذا رجعت الى بيعة أبى بكر ، وبيعة عمر ، وبيعة عثمان ، وجدت هذا المعنى واضحا فيها تمام الوضوح ... فقد كان الناس يجتمعون ويختارون خليفتهم ثم يبايعونه . ولم يكن هؤلاء الخلفاء يتولون السلطة التشريعية ، لأن هذه السلطة كانت متروكة الى القضاة — كما ذكرنا من قبل — وكان القضاة يستمدون قضاءهم من القرآن الكريم ، ومن السنة ، ومن القياس ، ومن الاجماع .. ثم كانت أحكامهم ، كما كانت فتاوى العلماء ، هى الأساس الذى يقوم عليه الفقه ، وتجرى على مقتضاه المعاملات بين الناس

كان الخلفاء اذا انما يتولون السلطة التنفيذية ، على حد تعبيرنا فى النظام الديمقراطى . فهل كانوا يتولونها مستبدين لا يحاسبهم أحد ، أم انهم كانوا يحاسبون وكانت عليهم رقابة سواء من نوع الرقابة البرلمانية فى أوروبا ، أو من نوع الرقابة النيابية فى أمريكا .. اذا كانت عليهم رقابة أيا كان نوعها ، لم يبق ريب فى أن نظام الحكم الاسلامى نظام ديموقراطى ، ان اختلف فى الصورة عما تألف اليوم ، فهو متفق معه فى المبدأ والأساس تمام الاتفاق .

لما تمت البيعة لأبى بكر ، خطب الناس ، فقال : « لقد وليت عليكم . ولست بخيركم ، فان أحسنت فأعينونى .. وان أسأت فقومونى » وقال : « أطيعونى ما أطعت الله ورسوله ، فان عصيت الله ورسوله فلا طاعة لى عليكم » .

وهذا صريح فى أن أبى بكر يقر بحق رأى العام فى مراقبته وارشاده ، ويذهب فى ذلك الى حد الاقرار لهذا رأى العام بعصيانته اذا هو عصى الله ورسوله ..

ونحن اذا أردنا أن نرتب على هذا الكلام نتيجته المنطقية ، لم نكن

مخطئين في القول بأن الذين بايعوا أبا بكر كان لهم حق محاسبته وتقويمه ، فإن عصي كان لهم حق العصيان ، وبعبارة أخرى كان لهم حق عزله . ولا نحسب معنى أبلغ في تقرير مبادئ الديمقراطية من هذا المعنى

وكان عمر بن الخطاب بعد أن أصبح أمير المؤمنين يخطب الناس يوما بمثل المعنى الذي تحدث فيه أبو بكر ، ويذكر للناس أن لهم أن يقوموه ان رأوا في تصرفاته عوجا . ولقد أجابه أحد الحاضرين بهذا الجواب الذي يحفظه كل مسلم عن ظهر قلبه : « والله يا عمر ، لو وجدنا فيك اعوجاجا لقومناه بحد سيفنا »

هذا الجواب يشهد لعمر بأنه كان رجل عدل وصدق ونزاهة .. لكنه يشهد كذلك بأن العرب ، كانوا يعرفون ما لهم من حق في محاسبة صاحب السلطان عليهم ومراقبته .. شأنهم في ذلك كشأن أهل اسبرطه وأثينا في اليونان القديمة ، وشأنهم كشأن الأمم الديمقراطية اليوم

والنظام النيابي القائم في أمريكا ، لا يعرف المسؤولية الوزارية على الصور المقررة في النظم البرلمانية .. فاذا كان العرب لم يعرفوا المسؤولية البرلمانية هم الآخرون ، فقد كان الحاكم مسئولا أمام الرأي العام كمسؤولية رئيس الولايات المتحدة الأمريكية . ونتيجة هذه المسؤولية ، أن لا يجدد الرأي العام انتخاب هذا الرئيس متى تمت مدته ، أو يضطره للتخلي عن منصبه باظهار عدم الرضا عن تصرفاته أو بعصيان سياسته ، على حد تعبير أبى بكر

مدة الحاكم الاسلامى

لماذا لم تحدد مدة الحاكم الاسلامى في الصدر الأول ، كما تحدد مدة الرئاسة لرؤساء الجمهوريات في عصرنا الحاضر ؟ وهلا ينهض ذلك حجة على أن الفكرة الديمقراطية كانت ناقصة عند العرب ، وبقيت ناقصة حين نقفها المسلمون ؟

الواقع أن التفكير في هذا الأمر ، لم يدر بخاطر المسلمين الأولين

لا اعتبارات جوهرية .. أولها ، أن أبا بكر لم تطل خلافته .. أكثر من سنتين وأشهر ، وأن عهده وعهد عمر كانا جميعا عهد فتح متصل انفسحت به أطراف الإمبراطورية الإسلامية شرقا وغربا .. فلم يكن العرب ليقيموا أثناء ذلك في شبه الجزيرة ، بل كانوا مشغولين خارجها بالغزو ومغانمه والنصر وأعياده ..

وقد ألفت الأمم في كل العصور ألا تفكر في انتخابات أو ما يشبهها في أوقات الحروب ، حين يكون الاستقرار الداخلى جوهريا لحياة الدولة .. ثم ان أبا بكر وعمر ، كانا حاكمين من طراز لم يعرف التاريخ له نظيرا .. لم تغير الخلافة ولا غيرت الامارة على المسلمين من حياة أى منهما ، ولم تنتقل به من داره الى دار أخرى .. بل لقد كانت نظريتهما في تولي أمور الدولة قائمة على أساس من انكار الذات ، بلغ حدا يحسبه أهل جيلنا ممعنا في المبالغة ..

نسى كل واحد منهما ، منذ تولي أمور المسلمين ، نفسه .. ونسى أهله وأبناءه ، وتجرد الله تجردا مطلقا ، وأوجب على نفسه أن يشعر بضعف الضعيف وحاجة المحتاج تحقيقا لمعنى الأخاء في أسمى صوره ، وايدانا بأنه ليس له في الحياة هوى ، وانه لذلك يقدر على أن يقيم بين الناس عدلا منزها لا يعرف محاباة ، ولا يعرف الا حق الله في أن يعيش الناس جميعا في ظل عدله ، جل شأنه ، آمنين مطمئنين

فلما انقضى عهد أبى بكر وعمر ، كانت رقعة الامبراطورية الإسلامية قد انفسحت .. ومع ذلك بقى الحكم عربى الأساس ، ديموقراطى المبدأ ، حتى قامت الثورات والفتن بين على ومعاوية ..

وقد تأثر الحكم الأموى بهذه الثورات لاريب .. لكنه بقى مع ذلك قريبا من المبدأ العربى الذى يقدر الحرية ، ويتفق وما تفهمه اليوم من الديموقراطية ..

وقد لبث الحكم كذلك طيلة عهد الملوك الأولين من الأمويين فلما استعرت الثورات ثائية بين الأمويين والعباسيين ، ولما دخل الفرس ثم دخل

الروم في البلاط الاسلامي ، بدأت هذه المبادئ العربية التي تتفق والروح الاسلامي الصحيح تتأثر بالبيئة الجديدة ، ثم طغت هذه البيئة عليها ، ثم آمن ملوك المسلمين بحقهم المقدس في الملك ، كما كان يؤمن به ملوك أوروبا .. ثم كان من أثر ذلك أن تدهورت الامبراطورية الاسلامية ، وان بدا عصر الانحلال الذي استمر أجيالا وقرونا

ليس من الانصاف أن يحاسب الاسلام عما استحدث في هذه الأجيال ، مما يخالف مبادئه ولا يتفق وتعاليمه .. وقد بينا بوضوح ، ما تنطوى عليه هذه التعاليم ، وما تقرر هذه المبادئ ، على ما صورت في أول عهد الناس بهذا الدين

وليس ثمة شبهة في أن هذه المبادئ تتفق ومبادئ الديمقراطية ، ولا شبهة كذلك في أن المسلمين يجب عليهم أن يقيموا أنظمة الحكم في بلادهم على أساس من هذه المبادئ ليصوروا هذه النظم كما يشاءون .. ليجعلوها برلمانية أو نيابية .. ليقيموها على أساس المسؤولية الوزارية أو المسؤولية العامة أمام الرأي العام ، مسئولية من نوع ما هو حاصل اليوم في أمريكا ، وما كان حاصلًا في عهد الخلفاء الراشدين ، ليختاروا من ذلك أو مما يشبهه ما يشاءون ..

لكن الأساس يجب أن يكون دائما حكم الشعب نفسه عن طريق التمثيل الصحيح ، والمناقشة الحرة ، والانتقاء الى رأى الأغلبية ، ويجب على المسلمين أن يدافعوا عن المبادئ التي قررها دينهم بكل قوتهم .. ففي ذلك تثبيت لما يدينون به ، وما تتحقق به آراؤهم الاسلامية السليمة

فأما الذين يحاولون التدليل على أن الاسلام يقر حكما غير الحكم الديمقراطي ، ويلتمسون الحجة على ذلك بما كان في عصور مختلفة من حياة الأمم الاسلامية ، فأولئك يخالفون المبادئ الجوهرية للاسلام على ما خرج في صفائه من شبه الجزيرة ..

وحسبي دما لحجة هؤلاء ، أن المسلمين لم يصبهم ما أصابهم فأحزنهم الا بفضل هذا الحكم المطلق .. وما كان لنظام جنى على المسلمين هذه

الجنائية أن يكون نظاما اسلاميا يقره المسلمون ويحترمونه !.. فأما الديمقراطية الاسلامية ، على ما خرجت من شبه الجزيرة ، فهي التي جعلت للاسلام ما أراد الله له ، وما حفظ حتى اليوم كيانه

ولم تقف المبادئ الديمقراطية في الاسلام عند نظام الحكم في أمة بذاتها ، بل لقد تعدت ذلك الى العلاقات الدولية وتنظيمها .. فاحترام المعاهدات ، ومقاتلة الباغي حتى يفىء الى أمر الله ، واحترام المحايدين وامنهم .. كل ذلك وما اليه مما تفرضه المبادئ الديمقراطية ، قد فرضه الاسلام وقرره القرآن الكريم



الحياة الدولية

الاسلام دين حرية ، وأخاء ، ومساواة .. والتشريع والقضاء ، ونظام الحكم ، فيه صورة من صور الديمقراطية .. كما فهمها اليونان . الاقدمون ، وكما نفهمها في العصر الحاضر .. أفكان ذلك شأنه في الحياة الدولية كذلك ؟ .. وهل قرر في علاقات الدول بعضها مع بعض من المبادئ . ما يفارن بما تقرر في عصرنا الحاضر ؟ .. وان يكن من ذلك شيء ، فهل تتفق . هذه المبادئ وما تدين به الأمم الديمقراطية ؟

وطبيعى ألا يغفل الاسلام العلاقات الدولية ، وقد كانت معروفة أول ظهوره ، وكانت معروفة قبله بمئات السنين بل بألفها .. لكن الذى قد يعجب له بعضهم أن يكون الاسلام قد نادى بالفكرة الدولية التى حققتها الأمم الديمقراطية سنة ١٩١٩ فى أعقاب الحرب الكبرى الماضية ، أقصد فكرة عصبة الأمم ..

والواقع أن هذه الفكرة ليست الا تحقيقا لمعنى الديمقراطية فى الحياة الدولية على الوجه الذى تتحقق به فى الحياة القومية .. والأساس الذى تقوم عليه ، هو بعينه أساس الحرية والأخاء والمساواة .. المساواة بين الأمم الصغيرة والكبيرة ، وحريتها فى ابداء رأيها فى كل مسألة تعرض على العصبة ، وسعى الدول المشتركة فيها جميعا لتحقيق معنى التعاون والأخاء توطيدا للسلم ودفعاً للحرب

وذلك ما تجده فى الفكرة الاسلامية .. فأنت ان رجعت الى عهدة هذه العصبة ، وجدتها كلها تتلخص فى قوله تعالى : « وان طائفتان من المؤمنين اقتتلوا فأصلحوا بينهما ، فان بغت احدهما على الأخرى فقاتلوا التى تبغى حتى تنفى الى أمر الله ، فان فاءت فأصلحوا بينهما بالعدل وأقسطوا ان الله يحب المقسطين » ، « انما المؤمنون اخوة فأصلحوا بين أخويكم واتقوا الله لعلكم ترحمون » .. هذه الآيات تتناول مواد العهدة كلها

تقريباً ..

ولست أشك في أن قيام العصبة على أساس من هذه المبادئ الواردة في القرآن الكريم ، والتي أقرتها الأمم الديموقراطية العريقة في الحضارة في عصرنا الحديث ، هو وحده الوسيلة الأكيدة لاستقرار السلام في العالم على أن الاسلام والمسلمين ، كانوا يقدرّون أن قيام عصبة للأمم على هذا الأساس الديموقراطي ليس من الأمور اليسيرة ، وإن رضا الأمم جميعاً بهذا النظام — عن طوعية واختيار — لا يتحقق إلا بعد عصور طويلة .. لذلك قرروا مبادئ اتبعوها في الأزمان المختلفة ، ثم خولفت في أزمان أخرى ، تبعاً لتطور الأحوال مما أشرنا إليه في الفصول السابقة .. ومن أهم المبادئ التي قررها الاسلام احترام العهود وعدم الاختلال بالمعاهدات .. وهذا المبدأ أساسى في الحياة الدولية الاسلامية ، حتى لقد ضحى المسلمون الأولون من أجله أكبر التضحية

لما فتح رسول الله مكة ، كان العرب من مختلف الأديان يحجون الى الكعبة ، ويعتبرون ذلك من عباداتهم لآلهتهم .. واذ فرض الاسلام الحج الى مكة ، فقد أوحى الى رسول الله ، ما اقتضاه ان بعث على بن أبى طالب في موسم الحج يعلن الى الناس بمكة أن البيت الحرام أصبح للمسلمين دون غيرهم ، وأنه لا يصح لمشرك أن يحج بعد ذلك العام . مع هذا ، ومع أن الأمر الذى نزل به من عند الله كان صريحاً فيه ، فقد اشتمل هذا الأمر على استثناء صريح للذين عاهدوا رسول الله من المشركين ..

لذلك قال على حين أعلن للناس أنه لا يحج بعد ذلك العام مشرك ، أنه من كان له عند رسول الله عهد فهو الى مدته . وهو في ذلك انما نفذ قوله تعالى في سورة براءة بعد انذار المشركين ومنعهم من الحج : « الا الذين عاهدتم من المشركين ثم لم ينقصوكم شيئاً ولم يظاهروا عليكم فأتموا اليهم عهدهم الى مدتهم ان الله يحب المتقين »

ومن قبل ذلك عقد رسول الله عهد الحديبية مع أهل مكة .. وكان من شروط هذا العهد ، أن من جاء محمداً من قريش بغير إذن وليه رده عليهم ،

ومن جاء قريشا من رجال محمد لم يردوه عليه . وما كاد هذا العهد يوقع حتى أقبل أبو جندل بن سهيل بن عمرو الى المسلمين يريد أن يذهب معهم الى المدينة بغير اذن أبيه . ومنعه أبوه ، وجعل يجره ليرده الى قريش ، فنأدى : « يا معشر المسلمين !.. الرد الى المشركين يفتنوننى فى دينى » ، وكان جواب رسول الله : « يا أبا جندل اصبر واحتسب ، فان الله جاعل لك ولمن معك من المستضعفين مخرجا . انا قد عقدنا بيننا وبين القوم صلحا وأعطيناهم على ذلك وأعطينا عهد الله ، وانا لا نغدر بهم »

وبعد زمن من ذلك ، خرج أبو بصير من مكة الى المدينة بغير اذن مولاه ، فكتب أهل مكة الى النبى يطلبون رده .. فأمره أن يعود الى قومه ، وقال له : « يا أبا بصير انا قد أعطينا هؤلاء القوم ما قد علمت ، ولا يصح لنا فى ديننا الغدر ، فانطلق الى قومك »

ولما تولى أبو بكر خلافة رسول الله ، فارتدت العرب ، فانتصر خالد بن الوليد على مسيلمة بن حبيب المتنبيء باليمامة .. عقد خالد صلحا مع أهلها من بنى حنيفة ثم انه جاءه أمر من أبى بكر ، يخالف نصوص هذا الصلح . ومع أن خالدا انما كان يعمل باذن أبى بكر ، فانه احترم المعاهدة التى عقدها مع أهل اليمامة .. وأجاز أبو بكر تصرفه فى ذلك ، ورأى فيه ما يتفق ومبادئ الاسلام الأساسية

والأمثال على الوفاء بالعهد واحترام المعاهدات الدولية مستفيضة فى تاريخ المسلمين ..

أما فى الحرب ، فقد كان المسلمون متأثرين بالقواعد المقررة فى عهدهم فى مختلف البلاد ، ومن بينها الأمبراطوريتان البيزنطية والفارسية . وأنت لا تستطيع فى الحرب الا أن تقابل عمل عدوك بمثله ، أو على الأقل بما يزيل أثره ..

على أن المسلمين قد وضعوا قواعد انسانية سامية نفذتها جيوشهم فى كل حالة ، لم يضطروهم العدو فيها الى الخروج عليها .. من هذه القواعد ، ما ذكره أبو بكر فى وصيته لجيش أسامة بن زيد ، اذ قال : « لا تخونوا ،

ولا تغدروا ، ولا تمثلوا .. ولا تقتلوا طفلا صغيرا ، ولا شيخا كبيرا ، ولا امرأة ، ولا تعقروا نخلا ، ولا تحرقوه ، ولا تقطعوا شجرة مثمرة .. ولا تذبحوا شاة ، ولا بقرة ، ولا بعيرا الا لما كله »

وكتب أبو بكر في خاتمة كتاب بعث به الى قائده المهاجر بن أبي أمية المخزومي ، حين بلغه انه مثل ببعض أعداء الاسلام : « اياك والمثلة في الناس ، فانها مأثم ومنفرة الا في قصاص »

ولم تكن هذه القواعد التي جرى عليها المسلمون ، تقتصر على ما بين الأمم الاسلامية بعضها وبعض .. فما ذكرناه عن النبي حدث مع المشركين . ولم يكن الخلاف في الدين سببا قط في نقض العهود .. كان أهل نجران نصارى يقيمون باليمن ، وقد أقاموا على دينهم ، وتعاهدوا مع رسول الله على الجزية ، فلما تولى أبو بكر الخلافة ، أقام أهل نجران على عهدهم ، فاحترمه أبو بكر .. بل جدد معهم باحترام « ملتهم وسائر أموالهم وحاشيتهم وغائبهم وشاهدتهم وأسقفهم ورهبانهم ويبيعهم حيثما وقعت وعلى ما ملكت أيديهم من قليل أو كثير »

هذه بعض القواعد التي أقرها الاسلام في أمر العلاقات الدولية .. وهي تتفق مع أحدث القواعد الديمقراطية في عصرنا الحاضر

نقف الآن هنيهة لنسأل : كيف التقى الاسلام والديموقراطية في الأمور الجوهرية جميعا ؟.. فقد ثبت لنا في البحوث الأربعة التي قمنا بها أنهما يلتقيان في المبادئ العامة ، وفي أسس التشريع والقضاء ، وفي نظام الحكم ، وفي تنظيم العلاقات الدولية

والاجابة على هذا السؤال يسيرة .. فالاسلام والديموقراطية يتجهان جميعا وجهة مشتركة ويرميان الى غاية واحدة : سعادة الانسانية وأمنها وسلامها . وغرضهما في هذا انساني مطلق لا تحده حدود القومية ، ولا الجنسية ولا اللغة ولا غيرها من الحدود .. وهما يعتمدان في اتجاههما وفي تحقيق غايتهما على توجيه الفطرة الانسانية توجيها ، يسمو بها على حكم الهوى ويجنبها نزغ الشهوات

ويتجاوز الاسلام الديموقراطية في غايته .. فهي تحد غايتها بهذه الحياة ، أما الاسلام فيتعدى هذا الحد .. شأنه في ذلك شأن الأديان السماوية الأخرى

وانما يعتمد الاسلام ، وتعتمد الديموقراطية ، على الفطرة الانسانية .. لأن كل ما يخالف هذه الفطرة لا بقاء له على الحياة . من ثم تعرضت المذاهب الاقتصادية القائمة على منطق العقل المطلق لفشل كل تجربة ، قصد بها الى اقامة نظام على أساس هذه المذاهب ..

لماذا ؟.. لأن فطرة الانسان مركبة ، وليست بسيطة .. فهي تتصل بالعقل ، وبالعاطفة ، وبالهوى ، وبالشهوة ، وتنزع الى السمو اذا وجدت التوجيه الصالح .. لذلك كان العقل وحده ، بمنطقه المجرد ، غير كاف لاقامة النظام الاجتماعى .. وكذلك كانت العاطفة وحدها ، وبالهوى وحده ، وكل عنصر منفرد مما تتكون منه فطرة الانسان ، غير كاف لاقامة هذا النظام الاجتماعى

وهذه العناصر التى تتركب منها الفطرة الانسانية تتفاوت بين الأفراد .. لكن تفاوتها هذا لا يحول دون توازنها فى نظام الجماعة . والجماعة الانسانية كائن حى متصل على الأجيال ، فكل تنظيم لحياتنا يهمل عنصرا من عناصر الفطرة الانسانية لا يمكن أن يكون له بقاء أو دوام لا عجب واتجاه الاسلام والديموقراطية واحد ، وغايتهم واحدة ، وطريقتهم فى الاعتماد على الفطرة الانسانية وتوجيهها الى الكمال متحدة .. لا عجب أن يلتقيا فى الأمور الجوهرية جميعا ، مما يتصل بشئون الحياة . ثم لا عجب بعد ذلك أن تقصد الأمم الاسلامية فى عصرنا الحديث الى النظام الديموقراطى ، تتخذ أدواتها للسعادة الانسانية وللأمن والسلام .. ولا عجب فى أن تدافع عنه بكل قوتها ، لا تدخر فى هذا الدفاع وسعا ، ولا ترضى عن النظام الديموقراطى بديلا

الإسلام والحريات الأربع

- ١ -

الإسلام وحرية العقيدة

- * حرية العقيدة ومقررات الإسلام
- * الحرية والاختلاف المذهبي
- * حرية العقيدة والتقدم

حرية العقيدة ومقررات الاسلام

كانت نزعة السيادة التحكيمية هي بعض ما أدى الى الحرب العالمية الأخيرة وأثار لهيها ، فكان طبيعيا أن ينص في موائيق التنظيم الدولي الحديثة على حرية الرأي والتعبير عنه ، وحرية العقيدة واقامة شعائرها

فهل يتفق هذان المبدآن مع مقررات الاسلام أو يخالفانها ؟.. ليس من غرضي أن أبحث الأمر على طريقة الجدل الفقهي ، لأقرر قاعدة حاسمة أعتبرها حكما قاطعا .. فالذين يذهبون هذا المذهب في بحث المبادئ ، يتعرضون في أغلب الأحيان للخطأ . ذلك بأن المبادئ تكونت على الزمان بتأثيرات شتى عناصرها ، وهي لذلك تختلف في واقع الحياة اختلافا يتعذر معه الفصل بينها . ولذا أبحث هذا الأمر على ضوء الواقع من شئون الحياة لأرى هل يتفق المبدآن مع مقررات الاسلام الذي أدين به ويدين به مئات الملايين من الناس ، بقدر ما يتفقان مع مقررات المسيحية التي يدين بها مئات الملايين من الناس

وفي هذا الشأن لن أتردد في القول ، بأن المبدئين يتفقان مع مقررات الاسلام أيما اتفاق ..

وبيانا لذلك ، أبدأ بالكلام عن حرية التدين :

صحيح أن الاسلام يجزى المرتد عنه بالقتل .. لكن المسيحية هي الأخرى ، تهدر دم المرتد عنها . وكذلك تفعل الأديان الأخرى غير الاسلام والمسيحية . أما فيما وراء ذلك ، فإن الاسلام صريح في أنه لا اكراه في الدين ، كما يقرر أن الصالحين من أهل الكتاب لهم جميعا ثوابهم عند ربهم جزاء بما عملوا ، وقد طبق التعبير بأهل الكتاب في عهد عمر بن الخطاب على قوم من أبناء فارس ، لم يكونوا من اليهود ولا من النصارى . وهذا يدل أبلغ الدلالة على تسامح المسلمين الأولين الذين لم يفرضوا دينهم في الأمم التي فتحوها ، ولم يكرهوا الناس حتى يكونوا

مؤمنين

ولأن القرآن الكريم ينص على أنه لا إكراه في الدين ، فقد ترك المسلمون النصارى واليهود والمجوس في بلاد الشام والعراق ومصر على دينهم ، ولم يفرضوا الإسلام على أحد منهم . وقد بقيت في هذه البلاد إلى يومنا الحاضر طوائف لم تدخل في دين العرب ، بل تمسكت بدين آبائهم ، ثم تمتعت بالحماية التي تتمتع بها الأقليات اليوم في أكثر الأمم -عضارة بل بأكثر منها

وآنت تتلو معاهدات الصلح التي عقدت في عهد الفتح الاسلامى . فتراها جميعا صريحة في النص على احترام عقائد الأهلين في البلاد المفتوحة واحترام شعائهم وبيعهم وكنائسهم وأحبارهم ورهبانهم . وقد شعر أهل مصر بعد الفتح العربى بأنهم أكثر حرية في تدينهم بمذهبهم المسيحى مما كانوا عليه حين كانوا خاضعين لسلطان الروم ، اذ كان هرقل يحاول إكراههم على تغيير مذهبهم واعتناق المذهب الرسمى الذى أراد فرضه وتطبيقه في بلاد الامبراطورية البيزنطية

الحرية والاختلاف المذهبى

لقد حدث بعد ذلك العهد الأول ، أن كانت حرية التدين مقيدة في بعض الأزمان ، وأن القتال كان ينشب بين أهل المذاهب المختلفة في الدين الاسلامى بسبب هذا الاختلاف المذهبى . لكن هذا الأمر كان يقع في البلاد المسيحية كما كان يقع في البلاد الاسلامية ، لأن السلطات الدينية في ذلك الوقت هى بعينها السلطات الزمنية ، وكانت لذلك تعتبر مذهبها الدينى من نظام الدولة ، بل أساس هذا النظام ، الا أن هذه الحروب المذهبية كانت تنتهى حينما يظفر مذهب بعينه ، وحينما آخر بانهازم هذا المذهب نفسه ، هى التى أقنعت الناس بأن العقائد لا تفرضها القوة انما يؤدى اليها الاقتناع

وليس للاقتناع سبيل غير حرية الرأى وحرية الدعوة اليه ، فاذا اقتنع

الناس بما تنطوي عليه هذه الدعوة ، اطمأنوا الى الرأى فاعتقدوه وآمنوا به وهذا التطور هو الذى انتهى باقرار الدساتير الحرة لحرية التدين ، كما انه هو الذى دعا الى ايضاح هذا المبدأ فى ميثاق الاطلنطى ليكون من الأسس التى يقوم عليها عالم ما بعد الحرب . واقرار هذا المبدأ يؤدى الى أن ينظر الناس بعضهم الى بعض — على اختلاف أديانهم — نظرة احترام متبادل ، وأن يلتمسوا فى مقررات أديانهم المختلفة وسائل التقريب بينهم بدون أن يلتمسوا فى هذه المقررات أسباب التنازع والشحناء . فالأديان كلها تدعو الى مبادئ سامية غاية السمو وتناجى الوجدان بأرفع المعانى ، وتدعو الناس ليتوجهوا الى الله بقلب سليم يربط بينهم بروابط الأخوة والمحبة والسلام

ونحن المسلمين ننظر الى الأديان الكتابية نظرة تقديس لأننا نؤمن بما أوتى عيسى وموسى واسحق ويعقوب والنبىون من قبلهم ، ونؤمن بأن الله الواحد هو الذى هداهم ويهذى من يشاء طريق الخير وسواء السبيل

حرية العقيدة والتقدم

وقواعد الخلق المقررة فى الأديان ، كلها أساسها الحق والخير والايشار النفسى والعفو عند المقدرة وما الى ذلك من فضائل تعارف الناس فى كل الأمم وفى كل العصور على أنها قوام السعادة للانسان وليس بين الأديان دين يدعو الى البغضاء أو الانتقام أو الى نقيصة من النقائص . وهى فيما تدعو اليه من الفضائل تسمو بالنفس الانسانية الى المجد الأرفع ، وتناجى خير عناصرها لتزداد سموا ورفعة لذلك كان المتدين الحق ، الصادق الايمان المطمئن العقيدة ، أدنى الناس الى الكمال أيا كانت العقيدة التى يؤمن بها ، لأن العقائد على اختلافها تدعو الى السمو الانسانى وتحقق غاية الحياة

اذا أدت حرية العقيدة الى أن يتبادل الناس الاحترام ، وأن يلتمسوا فى الأديان المختلفة أسباب الكمال عن طريق التسامح والأخوة والمحبة ،

كان ذلك من أكثر العوامل الدافعة للتقدم ، المؤدية الى استقرار السلام في العالم . فانما نشبت الحروب وقامت الثورات الكبرى لأن كثيرين كانوا يشجعون على تجسيم ما بين الناس من أسباب الخلاف ، فتتسع هوة هذا الخلاف بينهم ويصبح سببا للبغض وللعدوان التي تنتهي الى التنازع والى الحرب . وقد اتخذوا الأديان ذريعة لاثارة أسباب العداوة في بعض العصور واثارة هذه الأسباب هي التي أدت الى الحروب الصليبية بين المسلمين والنصارى ، والى ما كان بين البروتستانت والكاثوليك من اضطهاد ومجازر

ولو أن حرية العقيدة كانت مبدأ مقرا في سالف العصور لعرف الناس التسامح ولما امتحنت الانسانية ، بما امتحنت به ، ولما أصابها يومئذ من الويلات ما أصابها

ولا أدل على ذلك من اطمئنان الناس الى حرية العقيدة في العصور الأخيرة . فقد كانت هذه الحرية كاملة وكنت ترى مظاهرها واضحة في انجلترا وأمريكا وفرنسا وفي الأمم الديمقراطية جميعا . ولم تثر مع ذلك من جرائها أية ثائرة ، بل بقى للأديان جميعا من الحرمة في نفس الناس ما لا يجنى عليه التعصب ولا يذهب به التفريق . فاذا اتجه الناس من بعد الى اعتبار الأديان وسيلة تقارب ومودة بما تدعو اليه من رفعة وسمو ، ولم يسمعوا الى الذين يدعونهم الى التنافس والتنازع بسببها ، تحققت أسباب الوئام والمحبة والسلام

أما ومقررات الاسلام لا تأبى حرية العقيدة ، ومقررات المسيحية لا تأبأها ، فسيكون لهذه الحرية ، التي يؤمن الناس بها صادقين ، أثر خير الأثر في علاقة ما بين الأمم الاسلامية وغيرها من الأمم نصيرة الحرية

- ٢ -

الإسلام وحرية الرأي

- * حرية الرأي أساس من أسس الدين الإسلامى
- * ضعف الحرية فى عهد انحلال الأمم الإسلامية
- * حرية الرأي والتعاون الدولى
- * أثر الحرية فى حياة الافراد والجماعات

أساس من أسس الدين

ذكرت أن العالم يضطرب اليوم بمبادئ وآراء تستوقف النظر وتدعو إلى التفكير ، ليرى الإنسان ما بين هذه الآراء والمبادئ من ناحية .. ومقررات الدين الاسلامي من ناحية أخرى ، من نسب يقربهما أو يباعده بينهما .. وما عسى أن يكون لهذا التقريب أو لهذه المباعدة من أثر في علاقات الأمم الاسلامية بغيرها من الأمم التي تدين بغير الاسلام وتحدثت عما نص عليه ميثاق الاطلنطى من حرية الرأى والتعبير عنه ، وحرية العقيدة واقامة شعائرها .. وبينت فيما يتعلق بحرية العقيدة أن الاسلام يقر هذه الحرية ، بقدر ما تقرها المسيحية وغيرها من الأديان فالقرآن يقرر أن لا اكراه في الدين ..

وتاريخ المسلمين يشهد بأنهم لم يفرضوا الاسلام على أحد في البلاد التي فتحوها ، وان من أقام على دينه من أهل هذه البلاد ولم يعتنق الاسلام ، تمتع بحماية لا تتمتع الأقليات اليوم في أكثر الأمم حضارة بأكثر منها وخلصت من ذلك إلى أن في مقدور الناس أن يلتبسوا في مقررات الأديان على اختلافها وسائل التقريب بينهم .. فالأديان كلها تدعوهم ليتوجهوا إلى الله بقلب سليم، ليربط بينهم بروابط الأخوة والمحبة والسلام ولا حاجة بى إلى القول بأن الاسلام قامت دعوته على أساس من حرية الرأى والتعبير عنه ، فهو حين دعا الناس إلى الايمان بالله .. جعل النظر في الكون والتأمل في سنة الله فيه أساس هذا الايمان .. فمن اهتدى فانما يهتدى لنفسه ، ومن ضل فانما يضل عليها

وقد كان الاجتهاد بالرأى أصلا من أصول الشرع منذ العصر الاسلامي الأول ، وكان هذا الاجتهاد بالرأى ، يتناول أصول الفقه في الدين .. فطبيعى أن تكون حرية الرأى مطلقة فيما وراء ذلك من شئون الحياة .. وهذا هو الذى جعل المسلمين الأولين في مقدمة من نقلوا العلوم

اليونانية والفلسفة اليونانية ، وأقاموا على أساس من تفكير اليونان مذاهب نقلها الأوربيون عنهم من بعد

هذا اجمال لصورة تاريخية تتولى ألوف المجلدات تفصيلها وهى صورة صحيحة كل الصحة مع اجمالها فى سطور ..

وحسبك أن تذكر ما كان يقع بين النبی العربی وخصوم الدعوة الجديدة من جدل ، تبلغ فيه المعارك الكلامية ذروتها لتقتنع بأن حرية الرأى كانت أساس هذه الدعوة ، وأن تذكر ما تكرر فى القرآن من التشريب على الذين يتمسكون بما وجدوا عليه آباءهم دون النظر فيه وتمحيصه ، لنفى ما فيه من زيف باطل .. لتعلم أن تحرير الفكر من رق الجمود ، كان أساسا من أسس الدين الحنيف ..

أما الاجتهاد بالرأى فكان يقع فى عهد رسول الله ، وكان عمر بن الخطاب اماما فيه .. حتى لقد صارت آراؤه من بعد مراجع يأخذ بها أئمة الفقه

وقد أدى نقل الفلسفة اليونانية للعربية الى نشاط عقلى ، تبدو آثاره واضحة فى كتب الفلسفة الاسلامية ، سواء منها ما ظهر فى الشرق حين كانت دمشق وبغداد والقاهرة عواصم الامبراطورية الاسلامية ، وما ظهر منها فى الغرب أيام مقام المسلمين بالأندلس واطمئنان دولتهم فى ربوعها

فى عهد الانحلال

وانما قضى على هذه الحرية ، وأقفل باب الاجتهاد ، حين بدأ عهد الانحلال .. فى هذا العهد ، انقسمت الامبراطورية على نفسها ، واستبد الملوك بأممها المختلفة ، وأصبح شأن العلماء فى تلك العهود المهلهلة أن يجدوا ما يؤيد سلطان هؤلاء الملوك

فاذا خرج أحدهم على هذا اللون من التفكير ، أو أراد مجاربة المظالم التى تقع فى ظل هذا السلطان ، اتهم بالكفر والزندقة وحلت به نقمة الحاكم .. من ذلك العهد بدأ الجمود يقيّد الأذهان ، وبدأت الحرية

العقلية تزول من العالم الاسلامى ، وارتد الناس الى جاهلية لا تقرها
سبأىء الاسلام السليمة

واستنادا الى ما حدث فى ذلك العهد ، ظن بعض المستشرقين ، وبعض
الجامدين من المسلمين ، ان الدين الحنيف لا يقر حرية الرأى وحرية التعبير
عنه .. ولو أن هؤلاء رجعوا الى الأدب الاسلامى شعره ونثره فى عصر
الأمويين وفى عصر العباسيين ، والى الفنون التى ازدهرت على أيدي
المسلمين الذين عاشوا أثناء تلك العهود ، فى بغداد وفارس ، وفى دمشق ،
والقاهرة ، والى ما كان منها فى الأندلس .. لرأوا نهضة فى التفكير وفى
التصور وفى تصوير الآراء والمذاهب والفنون ، تدل على حرية لا تزيد
عنها حريتنا اليوم فى ابداء الرأى والتعبير عنه

وفى عهد الانحلال الذى طرأ على الامبراطورية الاسلامية ، كانت أوروبا
المسيحية لاتعرف حرية الرأى ، فلم تكن هذه الحرية تمر لأحد منها بخاطر..
وفى هذا العهد ، لما تكن أمريكا قد اكتشفت

وانما بدأ الناس فى أوروبا يثورون بالجمود الدينى فى القرن السادس
عشر ، ومع ذلك لم تعترف دولها بحرية الرأى قبل القرن الثامن عشر ، وفى
ذلك العصر الذى مهد له « فولتير » و « روسو » واضرابهما فى فرنسا .
كان صاحب الرأى يحارب لرأيه ، وكان يحبس أو ينفى من الأرض ، وكان
يضيق عليه فى رزقه .. ولم يتقرر هذا المبدأ على نحو صالح الا بعد
الثورة الفرنسية

مع ذلك ، ظلت حرية الرأى تحارب الحين بعد الحين .. حتى اذا قامت
الفاشية والنازية فى هذا القرن العشرين ، قضت عليها فى ايطاليا وفى ألمانيا
قضاء مبرما . ولهذا رأى روزفلت وتشرشل ضرورة النص عليها فى ميثاق
الاطلنطى ، واعتبراها الأساس الذى يجب أن تقوم عليه الحياة الانسانية .
فالانسانية المحرومة من حرية الرأى محرومة من أول عناصر الحياة
الانسانية الصحيحة ، ومن أقوى عنصر يدفع الى التقدم فى سبيل الكمال

حرية الرأى والتعاون

أما والاسلام يقر حرية الرأى والتعبير عنه ، فتعاون الدول الاسلامية مع الدول التى تدين بغير الاسلام على أساس من هذه الحرية ليس ممكنا وكفى ، بل هو واجب لخير الناس جميعا على اختلاف أديانهم وأوطانهم والواقع أن التعاون غير مستطاع بين الأمم فى عالم حر ، اذا لم تكن حرية الرأى أساس هذا التعاون .. فصلة الأمة بالأمة ، كصلة الرجل بالرجل ، لا تقوم الا على أحد الأساسين التفاهم أو الاكراه .. والاكراه اذلال للروح ، وتدمير لخير مقوماتها وفضائلها ، فهو كذلك فى أمر الفرد وفى أمر الجماعة ، وفى أمر الأمم وعلاقات بعضها ببعض . وهو هو الذى يثير الحروب وما تجر اليه من آلام ودموع وخراب ودمار أما التفاهم فهو وحده الجدير بالانسان .. وليس للتفاهم سبيل الا حرية الرأى .. هذا الى ما تؤدى اليه هذه الحرية من خير يعم الانسانية كلها فى مختلف العصور والأمم ..

ولا حاجة بى الى القول ، بأننا ننعم اليوم فى كثير من معاركنا ومن مقومات حياتنا بشمرات هذه الحرية بعد ما دفع أصحابها حياتهم ثمنا لها ، لأنهم رأوها أعز من الحياة ، ورأوها وحدها التى تصل بنا الى الحقيقة .. والحقيقة الانسانية — وان تكن نسبية — هى التى أبلغتنا فى هذا العالم ما بلغناه من رقى وحضارة

اثر الحرية فى الافراد والجماعات

ويسير عليك أن ترى ما لهذه الحرية من أثر فى حياة الأفراد وفى حياة الجماعات .. فالعلاقات القائمة بين الأفراد على أساس من التفاهم الحر هى التى تبقى ، لأن هؤلاء الأفراد أقاموها مختارين لا يتحكم أحدهم فى صاحبه ، ولا يكرهه على شئ لا يريده ..

والأمر كذلك بخاصة اذا كان هذا التفاهم حرا غير مشوب بشائبة تجعل أحد الطرفين يسعى للتخلص من نتائجه ، اذا واثته فرصة لهذا التخلص ..

وعلاقات الأمم القائمة على التفاهم الحر شأنها كشأن علاقات الأفراد سواء .. فإذا ارتقى الأمر من مستوى التفاهم على المنافع الخاصة أو العامة الى حرية كل فرد في اعلان رأيه ، والتعبير عنه صادق القصد حسن النية ، كانت هذه الحرية أقدس شيء في الحياة وأعزه ، ثم كانت الى ذلك غذاء الحياة الاجتماعية في الأمة ، حافز الانسانية كلها الى التقدم خطوات فسيحة نحو الحضارة المثلى

وتاريخ الانسانية يشهد بهذه الحقيقة .. فقد تنقلت المدينيات في حقب التاريخ المختلفة من الشرق الى الغرب ، ومن حوض البحر الأبيض الى حوض الاطلنطي والى حوض الباسفيكى ، فلم تكن مدينة تزدهر ازدهارا حقيقيا في غير ظلال الحرية العقلية الصحيحة ..

فإذا أظلت الحرية الناس ، كانت الفلسفة ، وكان العلم والأدب والفن ، ترتقى كلها وتنتظم الجماعة في كل طبقاتها ، وتدفع الجميع الى الأمام .. يتنافسون متضامين في سبيل الرقى ، فإذا الصناعة تعظم ، وإذا الزراعة تينع ، وإذا التجارة تتضاعف ثمراتها .. وإذا النشاط الانساني في شتى صورته يتضاعف تضاعفا هندسيا مضطردا

ثم لا يكون هذا كله رهنا بارادة رجل يوجهه ، فإذا مات الرجل تضاءل النشاط وذوت مظاهره .. بل كان ذلك قائما بذاته ، حيا بحياة الجماعة المستظلة بعلم الحرية العقلية ، باقيا ما بقيت هذه الحرية تغذيه وتجري بواعث الحياة فيه

والعالم بأسره يتمخض اليوم عن حضارة عالمية عامة ، تشمل العالم كله في كل أرجائه وأقطاره .. ولا سبيل لهذه الحضارة أن تقوم وتزدهر الا أن تظل الحرية العقلية العالم بأسره ، وأن يتعاون الناس من أقصى الشرق الى أقصى الغرب في ظلال هذه الحرية لاقامة هذه الحضارة وتثبيت أركانها وما كان دين من الأديان ، ولا كانت عقيدة من العقائد ، لتحول دون هذا التعاون .. فالأديان كلها أساسها الحق والخير .. وكل حضارة تقوم ويرجى لها البقاء ، لا يمكن أن تقوم أو تبقى الا على أساس من الحق والخير

- ٣ -

الإسلام والتحرر من العوز

- * الإسلام والحرية الاقتصادية
- * مقررات الإسلام والتحرر من العوز
- * الطمأنينة الى العيش وزيادة الانتاج

الاسلام والحرية الاقتصادية

أبنت أن مقررات الاسلام لا تنفى حرية الاعتقاد ، وتؤيد حرية الرأى ..
وحرية الاعتقاد وحرية الرأى مبدآن من مبادئ الحرية الأربعة التى نص
عليها ميثاق الاطلنطى . أما المبدآن الآخرا فهما تحرير الناس من العوز ،
وتحريرهم من الخوف

فهل تؤيد مقررات الاسلام هذين المبدأين كذلك ؟ .. وان كانت هذه
المقررات تؤيدها ، فهل هذا التأييد مطلق أم محدود ؟
وقبل أن أجيب على هذين السؤالين ، أود أن أوضح المفهوم من عبارة
« التحرر من العوز » و « التحرر من الخوف » وهذا التوضيح يقتضى
بعض الرجعة الى الماضى ، والتذكير لما كان فيه
وأبدأ بالكلام عن التحرر من العوز ..

فقد كان مبدأ الحرية الاقتصادية سائدا فى القرن التاسع عشر على نحو
يكاد يكون مطلقا . وكان مذهب الفردية يعبر عن هذه الحرية الاقتصادية
تعبيرا حل من نفوس الناس — مدى قرن كامل — محل الايمان
والمذهب الفردى يقوم على أساس من حرية الفرد المطلقة فيما يصنع وما
يدع .. فلا شأن للدولة بالفرد ، ولا سلطان لها عليه ، الا اذا أخل بالأمن
أو احتاجت الدولة اليه للدفاع عن كيائها ضد معتد أجنبى ..
من ثم ، كانت الدولة حارسا للأمن فى الداخل والخارج ، وكانت
وظيفتها محصورة فى حدود هذه الحراسة لا تتخطاها

وقد أيد كثيرون من فلاسفة القرن التاسع عشر هذه الحرية واعتبروها
من سنن الطبيعة .. ورأوها القوام الأساسى لحياة الجماعة .. فاذا نجم عنها
ظلم أو بؤس ، أو شقى بسببها كثيرون ، فتلك أعراض طبيعية لا مناص
من الازعان لها ، كاذعائنا لثورة البركان اذا ثار ، ولهياج البحر اذا هاج ،
ولتدمير العواصف أو الصواعق ما تحصد وما تدمر

وكان هؤلاء الفلاسفة ، ينظرون الى ما تعانيه بعض الطوائف بسبب هذه الحرية على انه أمر طبيعي يعللونه تعليلا منطقيا ، كما يعللون كسوف الشمس أو خسوف القمر أو جاذبية الأرض من ظواهر الطبيعة .. فاذا تحدثوا عن الأجور ، تحدثوا عن قانون الأجور الحديدي كما يتحدثون عن جاذبية الأرض ، وقالوا ان انخفاض الأجور وارتفاعها رهن بقانون العرض والطلب .. فحيثما ازدادت الأيدي العاملة نقص الأجر ، وحيثما قلت زاد ..

والأجر ميال في نظرهم دائما الى الانخفاض لأن ازدياده في صناعة من الصناعات أو حرفة من الحرف ، يدعو العمال الى الاقبال على تعلم هذه الصناعة أو الحرفة ، فيزداد العرض على الطلب ، وتنزل الأجور الى مستوى الكفاف الذي يقيم به العامل أوده .. فاذا بلغت هذا المستوى ، انصرف الناس عن هذه الصناعة أو الحرفة الى غيرها

لم تلبث الحرية الفردية التي تؤدي الى هذه النتيجة الا قليلا حتى طُفرت بأفراد الى ذروة الثروة ، بينما بقي المجموع العامل مضغوطا في حدود الكفاف . ونشأ عن ذلك أن بدأت جماعات العمال تتكون في صور مختلفة تطالب في شدة بما تعتبره حقوقها ..

عند ذلك لم يكن للدولة بد من أن تتدخل باسم الأمن والنظام باديء الأمر ، وباسم العدل العام بعد ذلك ، لتخفف من ضغط هذه الحركات الاجتماعية الناشئة . وترتب على ذلك أن قررت بلاد مختلفة مجانية التعليم للجميع ، وأقامت النظام الصحي المجاني للجميع ، ثم أصدرت تشريعات العمل تنص فيها على حقوق العمال في التعويض عن حوادث العمل ومعاشهم للتقاعد

ولقد كانت المذاهب الاشتراكية ، تجد في هذا التطور الاقتصادي والاجتماعي غذاء يزيدها قوة وتغلغلا بين جاميع العمال . ولما كانت الحرب العالمية الأولى قد اشترك فيها ملايين من هؤلاء العمال من مختلف الأمم ، فقد أسرع اشتراكهم هذا في نمو المذاهب الاشتراكية في الأمم

المستعدة لها .. فكانت الاشتراكية الديموقراطية في فرنسا ، والاشتراكية القومية في ألمانيا ، والشيوعية في روسيا

على أن رأس المال ونظامه ، بقى له من السلطان حظ متقارب بين الدول التي أظلمته . وتقرير ميثاق الاطلنطى — ابان الحرب العالمية الأيرة — حق تحرير الناس من العوز ، كمبدأ للسلام تطور جديد في تصوير ما يجب أن يكون بين رأس المال والعمل من علاقة

فهل تقرر مبادئ الاسلام هذا التحرير من العوز ، على أنه مبدأ من المبادئ التي يقوم عليها المجتمع الانسانى ؟.. وهل تستطيع الأمم الاسلامية لذلك أن تشترك في تقرير التفاصيل التي ينفذ بها هذا المبدأ مع الأمم التي تدين بغير الاسلام ؟

مقررات الاسلام والتحرر من العوز

لا أتردد لحظة في القول بأن مقررات الاسلام ، تقرر هذا التحرير من العوز وتدفع اليه .. فقد فرض الاسلام الزكاة ، وقرر الصدقة وجعلها للفقراء والمساكين وأبناء السبيل ممن عضهم الفقر بنابه ، كما جعل لها مصارف أخرى هي مرافق الدولة العامة

وقد جعل القرآن في أموال الأغنياء حقا معلوما للسائل والمحروم . ولما بدأت الأموال ترد من البلاد المفتوحة الى مقر الخلافة في عهد عمر ، فرضت للناس أعطيات لم تقتصر على المحاربين وعلى علية القوم .. بل كان منها لكل فقير حق مدون في دفاتر العطاء ، اعتبره الخليفة واعتبره أولو الرأي الحد الأدنى لمستوى المعيشة العربية

ان الاسلام يقر الاشتراكية ويقر الملكية الخاصة ، ويقر الميراث ، وما دام الأمر كذلك فالمقادير التي ترضاها الجماعات في نظامها من هذه المذاهب والنظم ، متروك تقديرها لساستها ولأولى الأمر فيها .. فكما ان لهم أن يجبوا من الضرائب ما يكفل التعليم العام والصحة العامة ومرافق الدولة جميعا ، على النحو الذى يتصوره أهل عصرهم ، فلهم كذلك أن

بضعوا للأجور حدا أدنى ، وأن يحرروا الناس من العوز على الوجه الذى
 يتفق مع المصلحة العامة ، وأن يعينوا الحد الأدنى لهذا التحرير
 فلن يقال أن عمر بن الخطاب رضى كذا حدا أدنى لعطاءه ، ليكون هذا
 لتعيين ملزما اليوم . فلكل زمن تقديره وتصويره .. والتشريع يجارى
 تصور الناس فى زمن بذاته ، ما دام هذا التصوير لا يتنافى مع المقررات
 الأساسية للإسلام

وكيف يرتبط المسلمون اليوم بحد تقرر من قبل لأدنى مستوى العيش ،
 وقد تغيرت الأوضاع الاجتماعية والاقتصادية للحياة خلال القرون التى
 انقضت من صدر الإسلام الى عصرنا الحاضر ، تغيرا جعلها شيئا آخر غير
 ما كانت

وحسبك أن تذكر الانقلاب الذى طرأ على العالم بقيام الصناعة الكبرى
 فيه ، وان تذكر كيف أثار هذا الانقلاب الانتاج والتوزيع وكيف اهتز
 بسببه ما كان مستقرا فى العالم ألوف السنين من علاقة بين رأس المال
 والعمل ، لترى ما بين العهدين من فرق هائل

والانقلاب الصناعى وليد القرن الماضى .. ما بالك بما حدث من انقلابات
 اقتصادية قبله ، وما بالك بما سبقه وما عاصره من انقلابات اجتماعية . أما
 والأمر ما ترى ، فالتقيد بما تقرر فى الماضى ، لا يمكن أن يتفق مع أوضاع
 الحاضر ونظمه

هذا ، ثم ان الناس كانوا يشكون فى الماضى من القحط يصيب أمة من
 الأمم ، أو طائفة من الأمم ، أما اليوم فأكثر ما يشكو الاقتصاديون منه
 زيادة الانتاج على حاجات الناس زيادة تؤدي الى العطلة ، وتؤدي الى
 الاضطراب الاقتصادى .. واذا قلت الناس ، قصدت بنى الانسان فى
 مختلف أقطار الأرض . فقد يسرت وسائل النقل تداول الحاصلات
 والمنتجات الزراعية والصناعية ، ولم يبق الخوف من القحط يساور أحدا
 فى أيام السلم

أما وزيادة الانتاج خطر يهدد العالم الحين بعد الحين ، فرفع مستوى

العيش وتعيين حد أدنى لحاجات الانسان أدخل في باب العلاج الاقتصادي ، وهو في نفس الوقت علاج للأحوال الاجتماعية التي تثير الطوائف بعضها ببعض ، كما انه يتفق مع ما يجب للانسان من كرامة ترتبط بوجوده كقوة عاملة ، ينتج عملها الخير الوفير للجماعة الانسانية كلها

الطمأنينة وزيادة الانتاج

والواقع ان ما في العالم من خيرات ، تتزايد كل يوم بفضل العلم ، وما يمكن للانسان من التحكم في قوى الطبيعة تحكما يكفل للناس أن يعيشوا جميعا عيشا انسانيا معقولا .. فاذا كان أكثرهم لا يزالون في عوز فمرجع ذلك الى سوء التوزيع

وقد عالج الاشتراكيون مشكلة سوء التوزيع بين رأس المال والعمل واقترحوا لها شتى ألوان العلاج .. وغير الاشتراكيين يرون في المقترحات الاشتراكية ، أو المتطرفة منها بخاصة ، ما لا يتفق وما في الطبيعة الانسانية من عوامل هي التي تدفعها لزيادة الانتاج كما ونوعا ، فاذا كان تحرير الناس من العوز يعالج مشكلة التوزيع ، ويزيد الجماعات الانسانية تمتعا بالخيرات الكثيرة الموجودة في العالم ، فواجب على الأمم الاسلامية أن تشترك في تنظيم هذا التحرير ، وقد أصبح جوهرها لحياة العالم وطمأنينته والنتائج التي يصل اليها الساسة وأولو الرأي فيه ، تمس كل واحدة من هذه الأمم كما تمس سلام العالم مساسا مباشرا

فاذا استطاع الساسة وأولو الرأي أن يبلغوا من هذا التحرير غاية محمودة ، أدى ذلك الى تقدم العالم خطوة جديدة في سبيل الكمال . فمن شأن الطمأنينة الى العيش أن تزيد مستوى الانتاج . وليس قصدي من الانتاج ما تثمره الزراعة والصناعة وكفى ، بل أقصد كذلك الى ثمرات العلم والفن .. فكم قتل العوز من ملكات ، وكم قضى على مواهب كانت — لولاه — متحفزة لأن تنتج للانسان في حياته العقلية وفي حياته المعنوية وافر الخير :

واذا صحت شكوى الاقتصاديين من وفرة الانتاج المادى ، فلا يزال العالم يشكو الفقر المعنوى .. ولا يزال يطمح للرقى بالنفس الانسانية الى مستوى تعرف فيه معنى الرضا ، وتطمئن الى قيم خلقية يتواضع الناس فى الحياة الخاصة وفى الحياة العامة عليها ، وتكون مرجعهم فى حسم كل نزاع يقع بينهم فى الحياة القومية أو فى الحياة الدولية وهذا الطموح فال خير لا ريب .. فالىوم الذى يتفق الناس فيه على هذه القيم هو اليوم الذى يتحررون فيه من الخوف من غير حاجة الى قوة قاهرة تكفل لهم هذا التحرير والى أن يجرى اليوم الذى يصبح فيه الايمان العالمى بالقيم الخلقية كفيلا وحده بتحرير الناس من الخوف يجب أن نرد هذه الكفالة الى أسباب وقوى أساسها التعاون الدولى على هذا التحرير



— ٤ —

الإسلام والتحرر من الخوف

- * عصبية الأمم ومخاوف الناس
- * التفكير في منع الحرب
- * الإسلام دين سلام
- * دعوة الإسلام إلى حياة أفضل

عصبة الأمم ومخاوف الناس

لما أعلنت أمريكا الحرب على دول الوسط في الحرب العالمية الأولى ، كان الرئيس ولسن رئيس جمهورية الولايات المتحدة اذ ذاك ، وكان رجل مبادئ يؤمن بها ويقررها عن عقيدة واقتناع . وكان من عباراته المأثورة عن تلك الحرب انها أثّرت لانتهاء الحروب كلها ، وأن الغرض منها أن يكون العالم آمنا لاستقرار الديمقراطية فيه .

وكانت فكرة عصبة الأمم مما أريد به انتهاء المنازعات بين الدول بالتحكيم . فلما وضعت تلك الحرب أوزارها ، وانعقد مؤتمر السلام والحق . عهدة العصبة بمعاهدة فرساي ، رأت أمريكا في هذه العهدة خروجاً بها على مبدأ منرو ، وجرا اياها الى المعتكك الدولي ، بمقدار لا مصلحة لها فيه .. فرفضت العهدة ولم تنضم الى العصبة .

مع ذلك تألف عصبة الأمم ، وعلق الناس على تأليفها كبير الرجاء في أن تحل المنازعات الدولية بالتحكيم ، وأن تفرض العقوبات على من يخالفها .. بذلك اطمأنت مخاوفهم من وقوع حرب جديدة .

وزادهم اطمئناناً أن الدول الكبرى ، أخذت تعمل على تحديد التسليح ، تريد الوصول الى الحد الأدنى منه .. فانعقدت المؤتمرات المتعاقبة ، واتخذت فيها قرارات زادت الناس أمناً من الخوف ، ومع أن موسولينى قام في ايطاليا منذ سنة ١٩٢٢ ، فألغى النظام الديمقراطى وأقام النظام الفاشستى على أنقاضه ، لم يدر بخاطر أحد يومئذ أن تهدد ايطاليا سلام العالم أو تخرج على ما تقرره عصبة الأمم .

فلما تولى هتلر أمر ألمانيا ، وجعل يقوى فيها روح القومية الجرمانية ، بدأت مخاوف بعض الساسة تثور .. بينما بقى أكثرهم يرى فيه وفى عمله لرقى ألمانيا عنصراً من عناصر السلام . ولم تمض سنوات حتى بدأت ألمانيا تعلن عن حاجتها لمجال أوسع من حدودها التى رسمت فى معاهدة فرساي ،

ثم بدأت تفكر في ضم الجنس الألماني في أوروبا تحت كنفها .. فضمت اليها النمسا ، ثم ضمت السوديت ، ثم طالبت بدانرج وبالممر البولوني عند ذلك رأت انجلترا أن الأمر لم يبق مقصورا على طلب ألمانيا لمجال حيوى يظهر فيه نشاطها ، وانها تريد التحكم في أوروبا للتحكم بعد ذلك في العالم ، فكانت الحرب العالمية الثانية نتيجة لتطور الحوادث في أوروبا بين سنة ١٩٣٥ وسنة ١٩٣٩

التفكير في منع الحرب

ومنذ بدأت الحرب الثانية عاد الناس يفكرون في الوسيلة لاتقاء الحرب .. ولذلك كان التحرر من الخوف رابع المبادئ التى وقعها الرئيسان روزفلت وتشرشل في ميثاق الاطلنطى . والتفكير في اتقاء الحرب في المستقبل يشغل بال الناس جميعا الى اليوم .. ولذلك كثرت المؤلفات التى وضعت تصويرا لهذا التفكير ، كثرة تزيد على أضعاف مثلها في الحرب العالمية الأولى ، وللناس عن التفكير في هذا الأمر أكبر العذر ، فما تدمره الحرب من أموال وأرواح مزعج مروع ، ولا يقاس الدمار الذى تم في حروب نابليون كلها بما وقع من الدمار في أى عام واحد من أعوام الحرب الأخيرة

والعلم يكشف كل يوم عن جديد ، هو في السلم نعمة وأداة رفه وخير ، وهو في الحرب تقمة وأداة دمار وموت . فاذا اطرده تقدم العلم ووقعت حرب كبرى ثالثة فلن يقف تدميرها عند حد ، ولن تودى بالحضارة الأوروبية أو بالحضارة الغربية وكفى .. بل ستودى بكل ما في العالم من مظاهر التقدم وآثار الانسانية . لا عجب وذلك هو الشأن أن يعظم التفكير في اتقاء الحرب في المستقبل

وليس من غرضي أن أشير الى ما أبدى من الآراء لضمان السلام في المستقبل ، فالإشارة الى هذه الآراء لا يكفيها مثل هذه الدراسة ولا تكفيها عدة دراسات . فهل تتفق مقررات الاسلام ومبدأ التحرر من

الخوف اتفاقا يطوع للأمم الاسلامية أن تشترك في المجهودات التي تبذل في سبيل هذا الغرض من جانب الأمم التي تدين بغير الاسلام ؟
وليس يكفي في الاجابة عن هذا السؤال أن أقول ان مفرات الاسلام لن تتنافى مع هذا المبدأ ولا تحول بين الدول الاسلامية والاشتراك في المجهود الذى يبذل لتحقيق هذا الغرض الانسانى العظيم ، بل أقول في صراحة وقوة ان مقررات الدين الاسلامى تفرض على الدول الاسلامية الحريضة على حريتها وحرية الشعوب جميعا أن تشترك في كل مجهود يبذل في تحقيق هذه الغاية حماية لشعوب الأرض كلها من أن تكتوى بنار الحرب وأن تنزل بها ويلاتها كرة أخرى

الاسلام دين سلام

فالاسلام دين سلام ودعوة للسلام .. والقرآن صريح في انكار حرب الاعتداء صراحته في الدعوة الى الجهاد لدفع الاعتداء ..
فان طائفتان من المؤمنين اقتتلوا فالاسلام صريح في وجوب دعوتهما الى السلم ، فان فاءتا فيها ، والا وجب مقاتلة الطائفة التي تبغى حتى تقىء الى أمر الله ، فان فاءت وجب الاصلاح والصلح خير . فاذا أمكن اتقاء الاعتداء قبل وقوعه ، وأمكن تنظيم هذا الاتقاء ، كان واجبا أن تشارك الأمم الاسلامية فيه ، والا تتردد لحظة في النهوض بنصيها العدل من أعبائه ولا يعترض على هذا بأن خطاب القرآن وجه فيه للمؤمنين .. فللمسلمين صلات بسائر الأمم يجب أن تنظم . وقد عقدت معاهدات صلح كثيرة في العصور المختلفة بين الدول الاسلامية وغيرها من الدول .. وفي بعض هذه المعاهدات ، أقرت بعض الدول الاسلامية امتيازات للأجانب الذين يعيشون في أرضها ، مبالغة منها في اظهار محبتها للسلم وحرصها عليه والواقع أن هذه الحرية الرابعة والتي يراد بها تحرير الناس من الخوف ، هى وحدها التي تكفل طمأنينة الناس في أرجاء العالم كله الى تلافى الحرب من الثلاث الأخرى السابقة التي تحدثنا عن اتفاقها مع مقررات الاسلام ..

فالأعتداء والتأهب له والخوف منه ، هو وحده الذى يحتج به من يشاء
 لحد من حرية العقيدة ، ومن حرية الرأى .. وهو الذريعة التى يطلب
 الناس باسمها أن ينزلوا عن الحد الأدنى لمستوى المعيشة الانسانى . وانما
 ازدهرت الحرية العقلية والحرية الروحية فى القرن التاسع عشر لأن الناس
 اطمأنوا الى ما تؤدي اليه سياسة توازن القوى من منع الحرب
 وقد تبين أن سياسة التوازن هذه انما تؤجل الحرب ولا تمنعها ، ولذلك
 أدت الى الحربين العالميتين اللتين أقضتا مضجع الانسانية فى هذا القرن
 العشرين

ومن يوم نشبت الحرب العالمية الأولى ، بدأت الاضطرابات الاقتصادية
 والاجتماعية ، فلم يستقر لحرية فى العالم قرار .. ولهذا اتجه الناس فى
 مختلف الأمم يلتمسون الوسيلة لمنع الحرب وقرار السلام
 مع ذلك نشبت الحرب الأخيرة ، فجرت على العالم ما جرت من ويلات
 ودمار وموت ، وجعلت الناس يعيشون فى جو مكهرب لا قرار فيه لشيء ،
 ولا يعرف أحد فيه ما كتب له فى غده . وليس مما يسبغ العقل أن يخرج
 الناس من نكبة ليقعوا فى نكبة شر منها ، الا أن يكون صوابهم قد طاش
 وهواهم قد ضل .. ولهذا كان التفكير من جديد فى منع الحرب أعظم
 ما يشغل بال الناس جميعا فى كل الأمم . فاذا لم يكن منع الحرب بتاتا
 أمرا تطبيقه الطبيعة البشرية ، فلا أقل من تأجيلها أجيالا متعاقبة تتقدم
 أثناءها الانسانية وينضج خلالها ضميرها ، حتى يكون أحفادنا أسعد
 حالا منا

دعوة الاسلام الى حياة افضل

وهذه الغاية هى بذاتها غاية الاسلام وغاية المصلحين الذين قاموا خلال
 العصور فى مختلف الأمم ، يدعون الناس الى حياة خيرا من حياتهم والى
 فضائل خيرا من فضائلهم .. وقد كان الجهد الذى بذل فى هذا السبيل
 مقصورا فى الماضى على أمة أو طائفة من الأمم ، لأن أسباب الاتصال العالمى

نم تكن ميسورة ، ولأن أجزاء غير قليلة من أرضنا كانت مجهولة لآبائنا وأجدادنا

أما اليوم ، وقد جمعت أسباب الاتصال أجزاء العالم ، ويسرت سبل التفاهم ، فمن حقنا أن نعظم أملنا في أن يكون الناس أسعد غدا مما كانوا بالأمس ، وأن يكونوا أشد حرصا على استدامة هذه السعادة فلا بسمحون لرجل أو لأمة أن تهددها أو تهدرها بحرب جديدة وكيف لا يحرص الناس على استدامة سعادة قوامها حرية الرأى والتعبير عنه ، وحرية العقيدة وإقامة شعائرها والتحرر من العوز ، والتحرر من الخوف ؟

لقد جاهد العالم منذ مئات السنين وألوفها ليحقق لبنيه شيئا فشيئا هذه الحريات .. وقد بذل من الجهد والدماء في هذا الجهاد العنيف الطويل ما يسجله تاريخ الانسانية من مبتداه الى وقتنا الحاضر

وقد ثبت في صحف هذا التاريخ أن كل نكسة كانت تصيب العالم فيما كسب من جهاده ، كانت تؤدى الى أعظم الويل .. وكان الناس يدفعون ثمنها غاليا ، ثم ان هذه النكسات كانت تحدث لأن بعض الشعوب كانت تتمتع بهذه الحريات وكان بعضها لا يجد الوسيلة اليها

أما وقد أقر الناس جميعا في كل الأمم بما لكل انسان من حق في أن يتعلم وأن يقدر ما له وما عليه ، فان هذه الحريات الأربع ستسرع الى الانتشار ... وسيؤمن بها كل انسان أينما وجد من أرجاء الأرض ، وسيبرى واجبا عليه أن يدافع عنها اذا حدثت معتد نفسه أن يعتدى عليها فاذا استقر هذا الشعور في النفوس ، وبلغ منها مبلغ الايمان ، قضى هذا الايمان وحده على فكرة الاعتداء .. وقرب بين بنى الانسان في أرجاء العالم كله ، فعاش الناس بفضل من الله اخوانا

ألمح في خاطري هذا اليوم السعيد ، ييزغ فجره ، ويعم نوره .. ويستمتع أبناءنا وحفدتنا بنعمته ، فتمتلىء نفسى ابتهاجا وغبطة . ولعل هؤلاء الأبناء والحفدة يحدث بعضهم يومئذ بعضا فيقول أحدهم لأصحابه : « ما أكثر

ما فى العالم من خير يكفى أبناءه جميعا ليعيشوا فى أمن ورغد ، سعادة .. بعملهم وبثمرات هذا العمل .. فما بال آبائنا كانوا يتناحرون ويقتتلون ، فيقتل بعضهم بعضا ؟ »

ولعل منهم يومئذ من يقسو فى الحكم علينا ويتهمنا فى منطقنا وفى رأينا .. ولو أنصفونا لذكروا أن ما ينعمون به من سعادة ، انما هو ثمرة هذا التنافر ، وهذا القتال ، وما ابتلينا به خلال القرون من ألوان الشقاء والبؤس ، ولقال حكيمهم : « ما أشبه ما ناء به آباؤنا من ألم بمخاض الأم حين تضع وليدها ، فاذا أثمر هذا المخاض وليدا جميلا نما وترعرع .. وسعدت الأم به وبآلامها فى سبيل وضعه ؟ .. ويقدر هذا الحكيم من حفدتنا سعادة أرواحنا يومئذ فى ظل الله .. »

فليثمر ما تنوء به الانسانية ، وما ناءت به خلال الأجيال من آلام ، هذا العالم السعيد يقول فيه أبناؤنا :

« ربنا أنت السلام ومنك السلام فحينا ربنا بالسلام »

الأماكن المقدسة في الشرق الأوسط

- ١ -

الأماكن الإسلامية المقدسة

- * فكرة بناء الأماكن المقدسة
- * الكعبة الشريفة بمكة
- * المسجد الحرام ومشاعر الحج
- * المسجد النبوي بالمدينة
- * المسجد الأقصى بالقدس

فكرة الأماكن المقدسة

ألف الناس أن يعتبروا كل بناء أتى عليه القدم أثرا من الآثار ، وأن يزوروه بدافع من الطلعة ، استزادة من المعرفة ، وحرصا على أن يروا بأعينهم ما صنع الأسلاف الذين طواهم الدهر في صحائف القبور منذ مئات السنين أو ألوفاها .. فالذين يزورون معابد الفراعنة في مصر يزورونها توقا الى العلم بحضارة سلفنا ، وبالقواعد التي كانت هذه الحضارة تقوم عليها ، وبالمنشآت التي شادها أهلها . وذلك شأن الذين يزورون الاطلال والآثار القديمة في كل بلد من البلاد . فأما المسلمون الذين يحجون بيت الله الحرام بمكة ويزورون قبر النبي عليه السلام بالمدينة ، فليس حب الاستطلاع هو الذي يدفعهم لزيارة آثار قديمة توالى عليها القرون ، وانما يدفعهم شعور عميق بأنهم يؤدون فرضا فرضه الله عليهم . وهم يرون الكعبة ، ويرون القبر النبوي ببصرهم وبصيرتهم ، على انهما متطلعين بحياتهم الروحية ، كاتصال منازلهم بحياتهم المادية وحياتهم الاجتماعية وذلك شأن المسيحيين اذ يحجون بيت المقدس . انهم يشعرون حين يدخلون كنيسة القيامة ، وحين يزورون كنيسة المهد ببيت لحم ، بأن فلذة من حياتهم الروحية قائمة في هذه الأماكن المقدسة ، وبأنهم اذا بعدوا بأجسامهم عنها فان أرواحهم تظل تهفو اليها واليهود الذين يزورون المبكى ببيت المقدس ، يخالط قلوبهم شعور كشعور المسيحيين ، وكشعور المسلمين في زيارتهم الأماكن المقدسة عندهم لست أعدو الحق اذن حين أقول ان هذه الأماكن تبقى على القرون جديدة أمام كل جديد ، لأنها تعتبر في نظر الذين يحجونها موقلا لأرواحهم ، وملادا لقلوبهم المتعطشة الى التطهر ترجوه حيثما تكون من بقاع الأرض .. ثم لا تطمئن الى أنها بلغت حظها منه حتى تتم حجها هذا الالتجاء الروحي الى مكان مقدس أمر جوهري في طبيعة الأديان

جميعا ، وهو كذلك بنوع خاص في طبيعة الأديان السماوية الثلاثة التي نزلت بالشرق الأوسط : اليهودية ، والمسيحية ، والاسلام . صحيح أن نشأة الأماكن المقدسة في الأديان الثلاثة ، تختلف وتتباين تباينا كبيرا ، لكن الفكرة التي شادت هذه الأماكن واحدة في الأديان الثلاثة أو تكاد تكون واحدة . وليس عجبا أن يكون ذلك شأنها . وبين هذه الأديان الثلاثة صلة أو ثقب الصلة .. فقد قام المسيح بين قومه من يهود ، يذكر لهم دينهم في صفاء جوهره وينذرهم عذاب الله بأنهم حرفوا كلامه الى موسى عن مواضعه منقادين وراء أهوائهم ومطامعهم ، مبتغين من عرض الحياة الدنيا ما يباعد بينهم وبين رحمة الله .. مندفعين بحكم هذه الأهواء والمطامع الى حياة الظلم والاثم ، كما ينذرهم بأن أغنياءهم الذين يظلمون الفقراء لن يتقبل الله منهم .. فدخول الجمل سم الخياط أيسر من دخول الغنى الباغى ملكوت الله ..

والقرآن الذى أنزله الله على محمد عليه السلام ، يجادل النصارى ويجادل اليهود بأن الله بعث لهم رسله بكلمة الحق .. فزاغت عنها أبصارهم وبصائرهم ، وبأنهم حرفوا كلام الله فى التوراة والانجيل عن مواضعه ، وأن النبى العربى انما بعثه الله ليرد الحق الى نصابه ، وليحقق الحق ولو كره الكافرون .. وقد بعثه الله مصدقا لما بين يديه من التوراة والانجيل

من هذه الصورة السريعة البسيطة لما بين الأديان الثلاثة من صلة ، يتضح أنها ترجع الى أصل واحد ، وتستمد وجودها فى صفائه من ينبوع واحد . وهذا الأصل الأزلى الخالد هو الحق جل شأنه .. تجلى على موسى فكلمه تكليما ونفخ فى مريم من روحه فكان عيسى كلمته الى الناس ، وأوحى الى محمد آياته وكلمته هدى للناس وبينات من الهدى والفرقان

والينبوع الذى تستمد منه هذه الأديان وجودها فى صفائه ، هو السمو بالروح عن كل عبودية لغير الله .. فالروح من أمر الله ، وملكوت الروح فى السماء لا فى الأرض ، واله الروح واحد هو الله جل شأنه وتعالى أسمائه . وقيام هذه الأديان الثلاثة تحيط به ظروف متشابهة كل التشابه ..

كان الناس في عهود الرسل الثلاثة يتخذون لأنفسهم أربابا من دون الله ، ثم يتخذون هذه الأرباب الى الله زلفى .. فجاءت الأديان الثلاثة صريحة في التقرير بأن الله لا اله الا هو الملك الحق ، وان الذين يتخذهم الناس أربابا من دونه ليس لهم شيء من قدرته ، لا يستطيعون أن يخلقوا ذبابا ضعف الطالب والمطلوب ، وان الناس يجب لذلك أن يقلعوا عن كل عبادة الا عبادة الله ، وعن الأمل الا في وجهه الأكرم ، وعن الاهتداء الا بنوره انذى أضاءت له السموات والأرض وصلاح عليه أمر الدنيا والآخرة



كان أهل مصر الفراعنة يصدقون فرعون اذ يقول لهم : « أنا ربكم الأعلى » فبعث الله موسى الى بنى اسرائيل يصرفهم عن عبادة فرعون الى عبادة الله . وكان أهل فلسطين يدعون لأرباب روما صاحبة السلطان فيهم ، وكان اليهود منهم يتملقون الحاكم الذى ترسله روما ويقرون ظلمه .. ابتغاء لرضاه عنهم ، وليمد لهم أسباب السلطان والمال ، فقام المسيح فيهم يدعوهم الى ملكوت السموات ، وينذر الأغنياء عذاب ربهم الأعلى وكان العرب في شبه الجزيرة ، يعبدون الأصنام .. فبعث الله محمدا اليهم يدعوهم لعبادة الله وحده ولنبد الأصنام ، وينذرهم عذاب يوم شديد اذا هم لم يبتغوا وجهه الأكرم ، ملتسقين اليه الوسيلة بالبر والتقوى ليس عجبا والصلة بين الأديان الثلاثة ما قدمت ، أن تتفق الفكرة التى أدت الى تشييد الأماكن المقدسة أو تكاد تتفق . وهذه الفكرة لا تقف عند تقديس المكان الذى نزل الدين فيه ، فأمرها ليس كذلك فى اليهودية بالنسبة لحائط المبكى ولا للصخرة المقدسة . وانما جوهر هذه الفكرة تعيين المكان الذى يجتمع الناس فيه .. ليتوجهوا بقلوبهم الى الله ، والذى يقبل الله فيه توبة التائب من آثامه .. فنحن وان اتصلت روحنا ببارى النسم جل شأنه ، تغشانا بحكم حياتنا الدنيا أهواء وشهوات ، تحجب ضياء الروح ، فلا يهديننا صراط الله المستقيم وكثيرا ما تدفعنا هذه الشهوات وهذه الأهواء الى ألوان من المعاصى

والآثام ، تباعد بيننا وبين رضا الله عنا ، وحسن مشوبته جل شأنه أيانا ..
 حق ان الحسنات يذهبن السيئات ، وانما في عبادتنا حيث كنا نخفف من
 أوضاع ذنوبنا . لكن من الذنوب ما يثقل الروح فهي أبدا قلقة تريد أن
 تخلص منه . ونحن نتوب الى الله ونستغفره في كل صلاة وفي كل ساعة من
 ساعات الليل والنهار . وعفو ربي وسع كل شيء . لكن التوبة النصوح ..
 التوبة التي يتقبلها الله ويمحو ذنوب صاحبها ، هي التوبة التي نسعى اليها ،
 وتتجشم المشاق في سبيلها ، ثم نعلنها على ملأ العالم من بنى ديننا . وهذه
 التوبة هي التي تتم في اعلان صريح في المكان المقدس الذي اختاره الله
 لنا ، كى يكون بعضنا شهيدا على بعض ، ولكى لاتلهينا العاجلة ، فلا
 نكاد نعلن التوبة الى الله حتى تتورط في حياة الاثم من جديد

هذه هي الفكرة الجوهرية القائمة بنفس كل مسلم ، وكل مسيحي ،
 وكل يهودى ، يعتزم الحج الى المكان المقدس الذى اختاره الله لأهل دينه
 وملته .. ففى سبيل طهر القلب ، ونقاء الروح مما يعلق بالنفس من أوضاع
 الاثم ، نذر وراء ظهورنا تلك البيئة التي أغرتنا وغرتنا ، ولعبت بأهوائنا ،
 وعبثت بقلوبنا الى بيئة ظهور تتجلى فيها أرواحنا ، وترتفع الى غاية ما
 تستطيع أن تسمو اليه من عوالمها المضيئة .. فتصهر بحرارة ايمانها ،
 وبحرارة توبتها ، ما علق بها أو تصبره على ملأ بنى الدنيا لأن الدنيا مهد
 الخطيئة ، فليس منا من يستطيع أن يدعى انه لم يَأْثَم .. بل كلنا تصدق
 فينا كلمة السيد المسيح فى مريم المجدلية : « من كان منكم بلا خطيئة
 فليرمها بحجر »

فكرة التوجه الى الله بالتوبة وطلب المغفرة ، هي التي أبقت الأماكن
 المقدسة جديدة أمام كل جديد ، وهي التي أنشأت تلك الأماكن أول
 أمرها . وهي الأساس لنشأة أقدم هذه الأماكن وأكثرها قدسية .. فمنذ
 فجر الاسلام كان الطواف بالكعبة يجمع كل معانى التوجه لله ، من شكر
 الى رجاء الى توبة واستغفار

وكان الطواف بالكعبة يجمع هذه المعانى قبل الاسلام .. فالعربى

الجاهلى الذى كان يطوف بالكعبة قبل أن يخرج الى عمل يرجو منه الخير،
والذى كان يضرب بالقداح عند هبل القائم فى جوف الكعبة قبل أن يوفقه
رب البيت الى ما يبغي ونحن لا نزال اذ نطوف اليوم بالبيت العتيق ،
يحدونا الرجاء أن يحط الله عنا أوزارنا ، وأن يوفقنا فى حياتنا الى ما نحب
ونرضى والى ما يحب ويرضى .. ذلك شأننا جميعا حين نحج وان اختلف
كل حاج فى تصور الحياة وتصور معانى الرجاء والشكر والتوبة

الفكرة التى شادت الأماكن المقدسة وأبقتها جديدة أمام كل جيل
جديد ، هى اذن فكرة التوجه لله ابتغاء رضاه ، والأمل فى بلوغ الكمال
الذى يقربنا من الله ، ثم قصورنا دون هذا الكمال ، وقربنا فى كثير من
الأحيان من تقيضه ، ورجاؤنا فى الله بعد ذلك أن يغفر لنا ما قصرنا وما
أثمنا . وهذا الاضطراب بين الكمال وتقيضه ، يتعرض له الناس جميعا
على اختلاف أقدارهم واختلاف علمهم ..

فهذا العاهل العظيم الذى ملك الأرضين ودوخ الشعوب ، وبلغ من
ذلك ما بهر القلوب وشد اليه الأنظار ، يرجع الى نفسه ساعات فيشعر بأن
ما يراه هو ويراه الناس العظيمة كل العظيمة .. ليس شيئا الى جانب ما
ارتكب فى سبيله من أوزار، وانه لذلك أحوج الى رضا الله عنه ولطفه به ،
حتى لقد يود لو انه لم يكن عاهلا عظيما ، ولم يرتكب كل ما ارتكب من
الخطايا

هنالك تضعف نفسه ويستشعر الندم ، ويريد أن يتقدم الى بارئه
بالتوبة ، فيسعى الى المكان المقدس الذى يتوب الناس عنده حاجا
مستغفرا مما اجترح فى سبيل العظيمة التى طالما أغرته وضلته . وهذا الفقير
الذى يكد ليله ونهاره لقوته وقوت عياله ، يشعر بأنه لم يكن دائما طاهر
النفس فى سعيه وفى كده ، وانه طالما تمنى لجاره ما لا يتمناه لمن يحب ،
وانه فى سبيل الحياة قد آثم وأذنب ، وانه لذلك فى حاجة الى التوبة تطهره
ليعود الى ربه تقي الروح ، جديرا بملكوت الله ..

وبين هذين - بين العاهل العظيم والفقير الذى يكد ويسعى لقوته

وقوت أهله - تضطرب طبقات الانسانية المختلفة بين القوة والضعف ،
 وبين اليأس والرجاء ، وبين الأمل الخادع والخيبة اللاذعة . وهى فى
 اضطرابها يعبث بها الغرور تارة ، ويعبث بها الضعف أخرى .. فاذا عبث
 بها الغرور أثمت ، واذا عبث بها الضعف أثمت ، وعند ذلك تشعر بالحاجة
 الى التوجه الى الله منيية تائبة من آثام الغرور ومن آثام الضعف جميعا ..
 ثم لا تجد ملاذا لطهر الروح المتعطشة الى الطهر الا بالحج الى الأماكن
 المقدسة .. تعلن عندها التوبة ، وتغسل فى ظلالها الوزر والحوبة
 من ثم ، كان شعور الحجاج اذ يبلغون هذه الأماكن المقدسة قويا ،
 فيأضا بمعان روحية لا سبيل الى تصورها فى غير هذه الأماكن . وسنرى
 صورا من ذلك حين الحديث عن كل واحد منها



الكعبة الشريفة

الاسلام أحدث الأديان السماوية الثلاثة التي نزلت في الشرق الأوسط . وقد جاء النبي العربي مصدقا لما بين يديه من التوراة والانجيل . ومع ذلك فبيت الله الحرام بمكة أقدم الأماكن المقدسة بهذا الشرق الأوسط . والسر في ذلك ان الأماكن المقدسة لليهود وللنصارى ، لم تخلع عليها آى القداسة الا بعد أن نزلت اليهودية وبعد أن نزلت المسيحية. أما الكعبة التي يعظمها المسلمون اليوم ، فكانت مقدسة قبل بعث محمد بأجيال طويلة . وكان العرب يحجون اليها أيام الوثنية والأصنام ، حتى منع الاسلام غير المسلمين من حج البيت

وقد ذكر القرآن قدمها في قوله تعالى : « ان أول بيت وضع للناس للذى ببكة مباركا وهدى للعالمين . فيه آيات بينات مقام ابراهيم . ومن دخله كان آمنا » وقال تعالى : « واذا جعلنا البيت مثابة للناس وأمنا . واتخذوا من مقام ابراهيم مصلى . وعهدنا الى ابراهيم واسماعيل أن طهرا بيتى للطائفين والعاكفين والركع السجود » الى قوله جل من قائل : « واذا يرفع ابراهيم القواعد من البيت واسماعيل . ربنا تقبل منا انك أنت السميع العليم »

هذه الآيات ترجع بناء البيت الحرام الى ابراهيم واسماعيل .. وابراهيم هو جد الأنبياء عليهم السلام ، يسبق في التاريخ موسى وعيسى . لا عجب إذن ، أن يكون بيت الله الحرام بمكة أقدم الأماكن المقدسة في الشرق الأوسط

قصة البناء

وقصة بناء ابراهيم واسماعيل البيت ، قصة رواها المؤرخون على وتيرة تكاد تكون واحدة . والمأثور أن ابراهيم طعن على قومه لعبادتهم الأصنام

فاضطهدوه .. ففر الى فلسطين ومعه زوجته سارة . ومن فلسطين سافر الى مصر وتزوج فيها جاريته هاجر .. وولدت له هاجر اسماعيل ، ثم ولدت له سارة اسحق

لم تطلق سارة المقام مع هاجر فسافر ابراهيم بها حتى بلغ الوادى الذى تقوم به مكة اليوم ، وهناك تركهما وترك معهما ما يقتاتان منه . أفكان فى هذا المكان ماء ، وكان على الماء خيام لبدو يقيمون عنده . هذا أمر يختلف فيه .. تجرى احدى الروايات بأن قبائل جرهم كانت تقيم على ماء فى هذا المكان . وتجرى رواية أخرى بأن ابراهيم ترك هاجر واسماعيل وحدهما وعاد أدراجه ، وان الماء نفذ بعد أيام من هاجر.. فجعلت تسعى بين ربوتين هما الصفا والمروة . فلما سعت سبعا ، تطلعت الى ناحية ولدها اسماعيل ، فآلفته قد فحص الأرض برجليه ، فنجم الماء من بئر هو زمزم . واستنقت هاجر وسقت ولدها ، وحجزت الماء دون السيل ، فجاءت جرهم فأقامت مع الأم وابنها على الماء

ولما شب اسماعيل ، تزوج فتاة من جرهم بنت مقضاض بن عمر . وقد ذهب ابراهيم لزيارة اسماعيل وأمه أثناء مقامهما بهذا الوادى ، مرة قبل هذا الزواج ومرة بعده . والروايات تجرى بأن بناء الكعبة حدث فى احدى هاتين الزيارتين . وان اختلفت على كيفية حدوثه

ذهبت رواية الى أن جبريل أمر ابراهيم فركب البراق مع هاجر ومع اسماعيل ، وطاروا يريدون مكان بيت الله لبنائه ، حتى اذا نزلوا مكة تعاون الأب والابن على اقامة البيت . وفى رواية أخرى ، أن ابراهيم جاء الى مكة بعد أن شب اسماعيل وتزوج . ووجده أبوه يبرى نبالا تحت دوحة قريبة من زمزم ، فتبادل التحية معه .. ثم قال له : « يا اسماعيل ان الله أمرنى بأمر ، أن أبني هنا بيتا » وأشار الى آكمة مرتفعة عما حولها .. وتعاون الرجلان على البناء ، اسماعيل يجيء بالأحجار ، وابراهيم يبنئها ، حتى ارتفع البناء الى قرابة قامة الرجل .. فجىء بالحجر الأسود ووضع مكانه ، ثم تعاون الرجلان حتى تم البناء ..

والروايات في الحجر الأسود وأصله تختلف .. قيل : جاء به جبريل من السماء ، اذ كان قد رفع اليها حين أغرق الطوفان . وقيل : جاء به جبريل من الهند حيث هبط به آدم من الجنة ، وكان أبيض ناصعا فاسود من خطايا الناس . وقيل : بل كان في جبل قبيس منذ طوفان نوح ، وكان مضيئا يكاد يذهب سنا ضوئه بالأبصار .. وإنما سودته أنجاس الجاهلية وأرجاسها .

وهذه الروايات على اختلافها ، تذهب الى أن البيت العتيق كان ارتفاعه ، حين أقام ابراهيم واسماعيل قواعده ، تسعة أذرع .. وأنه كان مستطيلا عشرين ذراعا في ثلاثين ، وأنه كان له بابان ملاصقان للأرض ، وأنه لم يكن عليه سقف وإنما حفر به بئر يكون خزانة له .



هذا هو المتواتر في أمر بيت الله الحرام ، واقامته أول ما أقيم .. على أن طائفة من غلاة المعتقدين لا يرضون أن تكون هذه النشأة نشأته ، ويحرصون على أن يردوا أمره الى ما قبل خلق الانسان أو الى أول خلقه . ذكر بعضهم أن الملائكة هم الذين بنوا البيت .. ذلك ان الله غضب عليهم حين قال لهم : « انى جاعل فى الأرض خليفة » قالوا : « أتجعل فيها من يفسد فيها ويسفك الدماء ونحن نسبح بحمدك ونقدس لك »

وأحس الملائكة غضب الله عليهم ، فلاذوا بالعرش يتضرعون ويكون اشفاقا من هذا الغضب ، ثم طافوا بعرش الله شيعا كما يطوف الناس بالبيت الحرام وهم يقولون : لبيك اللهم لبيك .. ربنا معذرة اليك .. نستغفرك وتتوب اليك ، فأنزل الله الرحمة عليهم ، ووضع تحت العرش بيتا هو البيت المعمور ، وقال للملائكة : « طوفوا بهذا البيت ودعوا العرش » ثم أمر الله الملائكة من سكان الأرض أن يبنوا فى الأرض بيتا على مثال البيت المعمور ، وأمر من فى الأرض أن يطوفوا به كما يطوف أهل السماء بالبيت المعمور . وتجري هذه الرواية بأن الملائكة بنوا هذا البيت الذى يقوم

بيت الله الحرام اليوم مكانه قبل خلق آدم بألفى عام
أما رواية آدم وبنائه البيت الحرام ، فتذكر أن آدم سأل ربه بعد أن
هبط وزوجه من الجنة : « يارب ما لى لا أسمع أصوات الملائكة ولا
أحسهم » وأجابه ربه : « بخطيئتك يا آدم .. ولكن اذهب فابن لى بيتا
فطف به ، واذكرنى حوله كنحو ما رأيت الملائكة تصنع حول عرشى »
فأقبل آدم يتخطى الأرض حتى بلغ مكة فبنى البيت الحرام .. وقيل : كان
هو يبنى وحواء تنقل له الحجارة

وفى رواية ان شيئا بنى الكعبة بعد آدم ، ثم جاء الطوفان فى عهد نوح
فأغرق الأرض وما عليها وأغرق بناء الكعبة ، ثم بوا الله لابراهيم مكان
البيت ، فأقام قواعده مع اسماعيل

وليس فى وسع مؤرخ أن يثبت شيئا - على سبيل القطع - عن
الروايات التى وردت عن بناء الملائكة أو بناء آدم أو شيث الكعبة

وظلت الكعبة على بناء ابراهيم واسماعيل زمنا لم يحدده مؤرخ .. قيل :
بناها العمالقة وجرهم بعد ذلك .. وقيل : بقيت كما بناها ابراهيم واسماعيل
الى أن جدد بناءها قصى بن كلاب الجد الخامس للنبي العربى . وتذهب
الرواية التى تذكر بناء قصى الكعبة الى انه خالف ما كان متبعا من ترك
البيت قائما فى الفلاة لا يبنى حوله أحد اعظاما لحرمة ، وأمر الناس
فبنوا حول البيت ولم يتركوا الا قدر المطاف

خلاف حول الحجر المقدس

وأقام العرب يحجون الكعبة كما بناها قصى ، الى أن ولد محمد بن
عبد الله صلى الله عليه وسلم ، والى أن بلغ الخامسة والثلاثين من عمره .
وفيما أهل مكة يتمتعون بحياتهم العادية ، اذا سيل عظيم انحدر من الجبال
وطغى على مكة ، وأصاب الكعبة فوهنها وصدع جدرانها .. وفكرت
قريش فيما تصنع بها . وبعد تردد ، هدم القوم البيت الحرام حتى
جداره . وثقلت قريش الأحجار من الجبال المجاورة وبدأت البناء . فلما

ارتفع الى قمة الرجل ، وآن أن يوضع الحجر الأسود المقدس مكانه
اختلعت القبائل أيها يكون لها فخار وضعه في هذا المكان . وكادت الحرب
الأهلية تنشب بسبب هذا الخلاف ، لولا أن قال أمية بن المغيرة المخزومي
للقوم - وكان فيهم شريفا مطاعا - اجعلوا الحكم بينكم أول داخل من
باب الصفا

وكان محمد بن عبد الله ، أول من دخل .. فلما قص عليه القوم قصتهم ،
قال : « هلم اليتى ثوبا » ونشر الثوب ، وأخذ الحجر بيده فوضعه فيه ،
ثم قال : « ليأخذ كبير كل قبيلة بطرف من أطراف هذا الثوب » وحملوه
جميعا حتى اذا حاذى موضع الحجر من البناء ، تناوله محمد ووضعه في
موضعه .. وبذلك انحسم الخلاف ، وأتمت قريش بناء الكعبة ورفعت بابها
عن الأرض ، وسقفتها ووضعت هبل في داخلها ، ووضعت معه النفائس
التي أهديت من قبل لها ، والتي طالما تعرضت قبل سقفتها ، لمطامع اللصوص.

إعادة بناء الكعبة

وظل بناء الكعبة هذا قائما ، حتى آل الأمر الى يزيد بن معاوية ، وكانت
عاصمته دمشق . وكان عبد الله بن الزبير لا يزال بمكة ثائرا بالأمويين . وجرد
يزيد جيشا سار الى مكة ، وحاصر ابن الزبير بها ، ونصب المنجنيق على
جبال مكة ورمى الكعبة بعشرة آلاف حجر ، وهنت البناء وجعلته عرضة
للحريق لما كان يخالط أحجاره من خشب الساج . عند ذلك استشار بن
الزبير الناس ما يصنع بالبيت ، وانتهى الأمر الى هدم الكعبة وإعادة بنائها
وفي أثناء البناء نصب حول الكعبة سياج من خشب وجعلت عليه ستور
حتى يطوّف الناس بمكان البيت ويصلوا اليه

وبعد عشر سنوات ، حاصر الحجاج ابن الزبير وقتله ، ثم غير أحد
جدران الكعبة ، وسد الباب الغربى ، ورفع البناء الى ما كان عليه في
الجاهلية .. فلما تولى هارون الرشيد ، سأل الامام مالكا في هدم الكعبة
وردها الى بناء ابن الزبير ، فكان جواب مالك : « يا أمير المؤمنين لا تجعل

كعبة الله ملعبة للملوك ، لا يشاء أحد أن يهدمها الا هدمها » وترك الرشيد البيت ، لم يتعرض له

بقيت الكعبة على بناء ابن الزبير وتعديل الحجاج ايامه ، لا يزيد المسلمون على أن يقولوا ما يعتريه الوهن منها ، حتى كانت سنة ١٠٤٠ هـ (١٦٣٠ م) ، اذ هطل بمكة مطر هتون فدخل المسجد وارتفع حتى دخل الكعبة . وكان بناؤها قد وهن بعد أن انقضى عليه قرابة ألف عام . لذلك سقطت جدرانها واحدا بعد الآخر ، وتراعى ما أصاب البيت الحرام الى الأقطار الاسلامية ، فانزعج الناس فيها ، كما انزعج أهل مكة فأجمع الكل على المبادرة الى عمارتها

وأحيط البيت بسياج من الخشب يطوف به الناس ويصلون اليه ، كما كان الأمر على عهد ابن الزبير . وأنفق القوم فى البناء ستة أشهر وأموالا طائلة . ولم يعيدوا من الأحجار التى بنى بها ابن الزبير الكعبة الا ما وجدوه صلبا قويا .. أما ما وهن ، فاستبدلوا به غيره

على أن مشكلة خطيرة واجهتهم .. فقد بدأ الحجر الأسود يتناثر الفتات منه . وللحجر الأسود من القدسية حظ ، جعل المعمارين يلجأون الى كل أساليب الفن ليعيدوا الى أجزائه صلابتها .. ولما تم لهم ما أرادوا ، ربطوه بإطار الفضة الذى ربط به على عهد ابن الزبير ووضعوه مكانه

وبناء الكعبة هذا ، هو القائم الى يومنا الحاضر .. وهو الذى يطوف المسلمون به منذ فرض الله الحج عليهم الى الآن ..

المسجد الحرام ومشاعر الحج

قلنا أن الكعبة أقدم الأماكن المقدسة ، وإنها أول بيت وضع للناس .. فقد كان العرب في الجاهلية يحجونها على اختلاف نحلهم ، ويعتبرونها المكان الذي يقبل فيه التوجه الى الله ، وتقبل فيه توبة التائب .. كان لبعض قبائل العرب أماكن كالكعبة تعظمها وتحج إليها ، وكان لكل قبيلة صنم تتخذة الى الله زلفى ، لكنها كانت جميعا تقدر أن الحج المقبول عند الله هو الحج الى بيته بمكة . فاذا اكتفى رجل القبيلة بالتعبد لصنمه ، أو بحج البيت القائم بالطائف ان كان من ثقيف مثلا ، لم يكن قد أدى ما عليه من فرائض العبادة أداء كاملا ، ولا بد له من زيارة البيت العتيق ليتم حجه وتقبل توبته

ولما تغلبت الحبشة على اليمن ، وحكمها أبرهة ، ظن أنه يستطيع أن يصرف أهل اليمن عن بيت مكة .. اذا هو أقام لهم بصنعاء بيتا يحجونه ويولون وجوههم شطره . وأقام بصنعاء بيتا له من الجمال ، ومن دقة الفن ، ما لم يكن لبيت مكة الذى تنزه ببساطته عن مجالى الفن .. فلم ينصرف أهل اليمن مع ذلك الى بيت أبرهة عن البيت العتيق ، بل ظلوا مؤمنين بأن هذا البيت القائم بمكة هو وحده الذى يقبل فيه التوبة الى الله ، وتقبل فيه توبة التائب

وكانت الأشهر التى تعارف عليها العرب قبل الاسلام على حج البيت فيها حراما ، لا يحل فيها قتل ولا قتال .. فاذا برز الناس للحج من أنحاء شبه الجزيرة ، وتخطوا أعلام الحرم ، لم يجز لأحد أن يقتل أو يقاتل ، ووجب على الجميع أن يلوذوا بأهداب السلام ، وأن يقفوا من مناوآتهم ومناوشاتهم عند الفخر والتفاخر على نحو ما كان يقع بعكاظ وبغيرها من أسواق العرب .. فاذا حدثت أحدا نفسه بالجريمة فى الأشهر الحرم فهو آثم قلبه

لذلك وجد النبي عليه السلام فرصة الدعوة الى دين الله في هذه الأشهر الحرم ، حين قاطعته قريش وأصحابه بمكة شعبا من شعاب الجبل ثلاث سنوات متوالية .. في هذه الفترة الدقيقة من حياة الدين الناشئ ، كان الرسول يخرج الى الناس في الأشهر الحرم ، آمنا عدوان خصومه عليه ، وكان يعرض نفسه على القبائل يدعوها الى دين الله ، مطمئنا الى انه في حِمى بيت الله

وكان المسلمون قبل الهجرة ، يعظمون البيت كما يعظمه غيرهم من سائر العرب . ومن يوم أسلم عمر بن الخطاب ، لم يرض عن استخفاء المسلمين وذهابهم الى شعاب مكة ، يقيمون الصلاة فيها بعيدين عن أذى قريش .. بل دأب على نضال قريش حتى صلى عند الكعبة وصلى المسلمون معه . فلما هاجر رسول الله ، والمسلمون معه ، الى المدينة .. بقى حينهم الى بيت الله بمكة يستحثهم الى زيارته . وظل ذلك دأبهم حتى ذهبوا عام الحديبية لحج البيت . فلما صدتهم قريش ذلك العام ذهبوا العام الذي بعده .. وفتح الله مكة بعد ذلك لدينه ولنبيه ، فأصبح للمسلمين من الحرية في حج البيت ما لغيرهم . وظل ذلك شأنهم الى أن كان العام الذي سبق وفاة الرسول ، والذي حرم بعده على غير المسلمين أن يطوفوا بالبيت .

العقيق

قبل الاسلام وبعده

وانما اختلف أمر الكعبة في الاسلام عنه في الجاهلية بعد فتح مكة ، لأنها كانت في الجاهلية موئل الأصنام .. وكانت تهدى اليها نفائس تحفظ في داخلها . وكانت بعض الأصنام قطعاً من الفن .. كان هبل مصنوعاً من العقيق على صورة الانسان ، فلما كسر ذراعه أبدله القرشيون منه ذراعاً من ذهب . وكانت بشر زمزم مطموسة ثلاثاً قرون في الجاهلية ، فأعاد عبد المطلب جد النبي حفرها .. فأخرج منها غزالتين من الذهب كاتتا مخبوءتين فيها . وكانت الملائكة مصورة على جدران الكعبة في صورة النساء ، وكان

لأبراهيم صورة يستقسم فيها بالازلام . فلما فتح النبي مكة عفى على هذا كله ، وطهر الكعبة من كل صنم وصورة ، وأبقاها في بساطتها مثابة للناس وأمنا .

وللمسجد الحرام قدسية تتصل بقدسية الكعبة .. وهو اليوم فسيح لبضعة آلاف من الأمتار ، يتجاور في صحته الرخام والحصباء ، ويمتد النظر في كل ناحية منه حتى تفقه عمد بينها وبين جدرانها بضعة أمتار ، وتقوم فوق العمد والجدران قباب تحمي من بالمسجد من الشمس والمطر . وهو لم يبلغ سعته هذه في عهد النبي ولا في عهد أبى بكر ، ولم يزد عمر وعثمان في مطاف الكعبة الا قليلا ، ولم يرفعا حوله بناء كالذى نراه اليوم . وانما أحيط المطاف في عهدهما بجدار قصير وكان غير مستقوف

وفي المطاف كان المسلمون يقيمون الصلاة ، فلما اتخذ الأمويون دمشق عاصمتهم ، ورأوا عناية النصارى بكنائسهم وعمارتها وزينتها .. رأوا أن يجعلوا للمسجد الحرام مثل هذه العناية . وكان عبد الملك بن مروان أول من أمر في سنة خمس وسبعين للهجرة ، رفعت جدر المسجد وسقف بخشب الساج الداكن المتين . وزاد الوليد بن عبد الملك في عمل آييه ، فوسع المسجد وزخرف السقف ، وأزر أسفل جدرانها بالرخام ، وجعل له شرفا .

وجاء العباسيون ، فزادوا في رقعة المسجد الى ضعف ما كان عليه ، وزينوه بالذهب وأنواع النقوش ، وكانت الكعبة في جانب من المسجد ، فأمر المهدي أن تكون في وسطه . ونفذ المهندسون أمره مع الاحتياط للسيول حتى لا تطفئ على البيت الحرام . وظل المسجد بعد ذلك ، موضع العناية من جانب الأمم الاسلامية في مختلف العصور الى وقتنا الحاضر

أماكن لها حرمة

الكعبة هي أول ما يأخذ بنظر من يدخل المسجد بطبيعة الحال .. هي بيت الله الحرام ، من دخله كان آمنا .. وهي قبلة المسلمين في أقطار الأرض

جميعا .. لكن بالمسجد فيما حول الكعبة ، أماكن لها عند المسلمين حرمة خاصة . هذه الأماكن هي : مقام إبراهيم ، وحجر اسماعيل ، وبئر زمزم ، والتاريخ لا يحدثنا عن الصورة التي كان عليها مقام إبراهيم أو حجر اسماعيل في الماضي .. بل لعل بعض المؤرخين يجدون عسرا في إثبات المكان الذي يقوم فيه المقام أو الحجر حين كانت الكعبة قائمة ليس حولها الا المطاف .. على أن حرمة المقام والحجر والبئر ، ترجع الى اعتبارات تاريخية والى نصوص في القرآن ، تدنى هذه الحرمة من القدسية ، وان لم تدن بها من قدسية البيت الحرام

وهذه الحرمة تدعو المسلمين للقيام في هذه الأماكن بالصلاة اجلالا لها .. ولا عجب أن يصنعوا ، وقد ورد في القرآن عن مقام إبراهيم قوله تعالى : « واذ جعلنا البيت مثابة للناس وأمنا . واتخذوا من مقام إبراهيم مصلى » . أما حجر اسماعيل فيذكرون أنه كان يقع داخل رقعة الكعبة ، كما أقام إبراهيم واسماعيل قواعدها ، ولذلك كان أجر الصلاة فيه كأجر الصلاة داخل بيت الله

ومقام إبراهيم يقابل باب الكعبة ويقابل الحجر الأسود . وهو يقع في جوار باب أقيمت عمده وأقيم عقده من الرخام . ولما كانت الروايات لا تثبت للمصلين فيه أجرا ، كأجر المصلين في حجر اسماعيل ، كان الذين يطيلون المقام عنده قليلين

أما حجر اسماعيل ، فيتصل بالكعبة ويقع في الناحية المقابلة للجدار الممتد بين الركن اليماني والحجر الأسود ، ويحيط به سور في نصف دائرة من الرخام يرتفع الى ما دون قامة الرجل العادى . والمصلون فيه أيام الحج يزحم بعضهم بعضا حتى لا يكاد الانسان يجد به مكانا الا أن ينتظر حتى يخلى له غيره مكانه

يقابل بئر زمزم حجر اسماعيل الى الناحية الأخرى من بناء الكعبة . وقد أقيم فوق البئر حديثا بناء يستره ، أريد به منع مياهه من التلوث . وهذا البناء فجهم يدخل الانسان اليه اذا وجد الوسيلة الى الدخول ، فيراه

فسيح الأركان .. ويرى فيه الموكلين باخراج الماء من البئر ليشرب منه من يطلبون البركة . فأما الذين يتاح لهم دخول البناء والوصول الى البئر ، فيتوضأون من ماء زمزم ، ويتضاعف بذلك حظهم من البركة

أبواب المسجد

وللمسجد الحرام فيما يقابل البئر والحجر والمقام أبواب عدة ، لعل باب على أكثرها جمالا من الناحية الفنية .. على أن باب الصفا هو الذى ينتقل منه الانسان الى شعيرة من شعائر الحج والعمرة بعد الطواف .. فالطواف بالكعبة أول ما يجب على من يدخل مكة أن يقوم به . فاذا أتمه ، فعليه أن يسعى بين الصفا والمروة استجابة لقوله تعالى : « ان الصفا والمروة من شعائر الله . فمن حج البيت أو اعتمر فلا جناح عليه أن يطَّوف بهما ، ومن تطوع خيرا فإن الله شاكر عليم »

والصفا والمروة كانتا ربوتين قائمتين فى الفلاة تظلهما السماء ويمتد بينهما المسعى . فلما بنى الناس حول الكعبة اعتدوا على أجزاء من المسعى حتى لم يعد اليوم مستقيما ، وحتى طغت الحوانيت والجدران والطرق القائمة حوله على بعض أجزائه

هذه الأماكن التى أشرت اليها هى أماكن الحج الاسلامى المقدسة داخل مكة ، وهى تتصل ببيت الله الحرام .. وقدسيته تفرض لها شعائر خاصة من العبادة تقرر أصولها منذ عهد النبى عليه السلام ، ثم نظمت تفاصيلها على الأجيال أدق نظام

الاماكن المقدسة خارج مكة

أما أماكن الحج الاسلامى المقدسة خارج مكة ، فأولها عرفات .. وقدسية عرفات لا تتجلى الا يومى الحج ، وهما اليومان الثامن والتاسع من شهر ذى الحجة لكل عام . وعرفة أو عرفات جبل ، يبعد عن مكة عشرين كيلومترا أو نحوها ، سطحه بطحاء فسيحة تتسع لعشرات الألوف من الناس .. فاذا كان اليوم الثامن من ذى الحجة ، صعد الحجاج من مكة الى عرفات زمرا ، فألفوا خيامهم ضربت بها وأعدت لقضاء الليل فيها .

فاذا أصبح الصبح من يوم عرفة ، رأيت هذا البطيح ممتدا أمامك لا يكاد يحيط بحدوده نظرك ، ورأيت الناس فيه جميعا لبسوا لباس الاحرام فهم سواسية ، ورأيتهم يتوجهون بقلوبهم وأفئدتهم الى الله يلتمسون التوبة والمغفرة .. فأنت تسمع استغفارهم منذ صلاة الفجر لذلك اليوم الى أن يفيض الناس من عرفات بعد صلاة العشاء فوق الجبل .. فاذا أفاض الناس من عرفات عاد خلاء كما كان لا يعمره الا من يمرون به من البدو ، ثم يبقى كذلك الى أن يستدير العام وتعود أيام الحج في العام التالي

ويفيض الناس من عرفات الى المشعر الحرام بالمزدلفة ، يأخذون منه الجمرات الى منى . والمشعر الحرام مسجد قائم في عزلة الصحراء بين هذه الجبال القليلة الارتفاع ، والتي تتصل من مكة الى عرفات . وقل أن يرى أحد من الحجاج مسجد المشعر الحرام لأنهم يمرون به بعد الافاضة ليلا ، ولا يقيمون عنده الا سويعات تطول أو تقصر حسب ساعات الافاضة . فمن أفاض بعد العشاء ، أتيح له أن يبقى زمنا الى ما بعد منتصف الليل . ومن أفاض من عرفات قبيل منتصف الليل ، لم يقف بالمشعر الا ريثما يتم جمع الجمرات

ويبلغ الحجاج منى قبيل الفجر ، ثم يقضون بها ثلاثة أيام يرمون فيها الجمار ويصلون بمسجد الخيف .. على أن الناس يهبطون من منى أول أيام عيد الأضحى ليطوفوا بالبيت ، ومنهم المحرم ومنهم من حل احرامه . فاذا أتموا الطواف والسعى ، عادوا الى منى ففقضوا بها أيام عيد الأضحى ، ثم رجعوا الى مكة ينظمون سفرهم منها الى المدينة أو عودتهم الى بلادهم هذه هي الأماكن المقدسة التي تتصل بالحج عند المسلمين .. وهذه الصورة السريعة التي عرضتها عليك تدلك على أن ما كان خارج مكة من هذه الأماكن لا تتجلى حرمة الا في أيام الحج . فأما ما خلا ذلك من أيام السنة ، فهو خلاء لا يشهده ولا يمر به الا المقيمون حوله .. أما بيت الله الحرام ، وأما المسجد الحرام ، فتظل شعائرهما متصلة طول العام .. وعلى كل من دخل مكة أن يطوف بالبيت وأن يسعى بين الصفا والمروة والمكان المقدس عند المسلمين بعد بيت الله ، هو القبر النبوي بالمدينة

المسجد النبوى

قل من المسلمين من حج بيت الله الحرام بمكة ، ولم يزر الحجرة النبوية بالمدينة . وكثيرا ما كان الناس فى بعض الأزمان يكتفون بزيارة القبر النبوى فى موسم رجب ، وكان ذلك واضحا بنوع خاص أيام كانت سكة الحديد الحجازية ممتدة بين الشام ومدينة الرسول . والحق أن قدسية المسجد النبوى والحجرة النبوية ، لا تقل فى نظر الأكثرين عن قدسية المسجد والبيت الحرام بمكة .. وان لم يفرض الاسلام لمسجد المدينة شعائر خاصة به

والمسجد النبوى بالمدينة ، يحتوى على الحجرة النبوية حيث دفن رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وحيث دفن الخيفتان الأولان أبو بكر ، وعمر . ومن هنا ، ازدادت قدسيته وازداد اقبال الناس على زيارته . على أن لمسجد المدينة مكانة خاصة ، لأن رسول الله هو الذى أقامه فى صورته الأولى .. فهو لذلك مسجد أقيم خالصا للمسلمين

فقد دخل رسول الله المدينة بعد هجرته من مكة ، وليس له فيها مكان يقيم به .. فلما بركت الناقة التى كان يمتطيها عند مربد يجفف فيه التمر لغلامين يتيمين من بنى النجار ، سأل عليه السلام لمن المربد . وأجابه معاذ ابن عفراء أنه لسهل وسهيل ابنى عمر ، وهما يتيمان له وسيريضهما ، ورجا رسول الله أن يتخذه مسجدا ، وقبل النبى أن يبنى فى هذا المكان مسجده وأن يبنى داره

وأمر رسول الله ، فقطع ما بالمربد من نخل وغرقه ، وسوى ما كان به من قبور الجاهلية ، وجفف ما كان به من الماء ، ثم بدأ البناءون يبنون المسجد والرسول معهم ينقل اللبن . واذا كان البناء بسيطا ، جدره من اللبن وسقفه من الجريد وعمده من خشب النخل ، فسرعان ما تم وبنى بيت رسول الله بجوار المسجد .. والى أن تم بناؤه ، كان رسول

الله يقيم بدار أبى أيوب الأنصارى

وكانت مساحة المسجد ، حين أتم النبي بناءه لأول مرة ، لا تزيد على خمسة وثلاثين مترا فى ثلاثين . وكان بحجمه هذا ، كافيا لصلاة المسلمين الأولين بالمدينة من المهاجرين والأنصار . فلما أجلى النبي اليهود عن المدينة وأجلاهم عن خيبر ، وخلصت المدينة بذلك للمسلمين ، لم يكن بد من أن يزيد النبي فى رقعة المسجد ، فجعله خمسين مترا فى خمسين . وكانت قبلة المسجد يومئذ من جذوع النخل ، وقد بقيت متجهة الى ناحية المسجد الأقصى حتى عدل بالقبلة الى ناحية الكعبة

ولم يتخذ رسول الله لنفسه منبرا أول ما بنى المسجد ، بل كان يخطب الناس مستندا الى جذع نخلة كانت عمادا من عمد المسجد .. فلما شعر أصحابه أن القيام شق عليه ، صنعوا له منبرا من الخشب درجتين ومجلسا

توسيع المسجد

وانقضت خلافة أبى بكر والمسيح كما كان على عهد النبي .. فلما أطردت زيادة المسلمين ، رأى عمر أن لابد من الزيادة فى المسجد .. فزاد فيه خمسة أمتار من الناحية الجنوبية ، ونقل القبلة اليها ، ونحو ذلك من الناحية الغربية وخمسة عشر مترا من الناحية الشمالية . ولم يزد شيئا من الناحية الشرقية ، اذ كانت بيوت أزواج رسول الله أمهات المؤمنين . ولم تكن زيادة عمر المسجد الا زيادة فى رقعته .. أما فن البناء فبقى كما كان على عهد رسول الله ، لأن العرب الى ذلك العهد كانوا يقصدون بالعمارة سد الحاجة الماسة على أبسط صورة

وازداد سكان المدينة بازدياد رقعة الفتح الاسلامى ، فشكا الناس الى عثمان ضيق المسجد يوم الجمعة . وشاور عثمان أهل الرأى من الصحابة ، فأجمعوا على أن يهدم ويزاد فيه . وهدم عثمان المسجد وزاد فيه بقدر زيادة عمر ، ثم أحدث من التطور فى عمارته أن بنى جدره بالحجارة المنقوشة ، وجعل عمدته من حجارة منقورة .. أدخل فيها عمد الحديد ،

وصب فيها الرصاص ونقشها من خارجها ، وجعل السقف من خشب الساج

الوليد يعيد بناء المسجد

وبقى المسجد على بناء عثمان حتى استقر الأمر للوليد بن عبد الملك الأموي ، ولم تبق للثائرين بالحجاز قوة . وقدم الوليد الحجاز حاجا وزار المدينة ، فألقى أحفاد علي بن أبي طالب يلوذون ببیت فاطمة الى جوار المسجد ، ورأى في ذلك تحريضا قد يعيد الثورة مشبوبة بالحجاز من جديد . هنالك قرر أن يزيد في المسجد ، وأن يدخل بيت فاطمة ويبيت النبي جميعا فيه .. لم يثنه عن ذلك جزع الناس وبكاؤهم لازالة هذه الآثار التاريخية الباقية للنبي ولحياته في المدينة

وكان للوليد في العمارة وزخرفها رأى غير رأى العرب .. فقد قضى حياته بدمشق وبين الآثار المسيحية والرومية في الشام . وقد أقام والده عبد الملك بن مروان قبة الصخرة ببيت المقدس فبز بها الكثير من الكنائس البارة .. لذلك لم يلبث حين استقر رأيه على هدم مسجد النبي واعادة بنائه ، أن كتب الى ملك الروم يستعينه بعمال وفسيفساء

وهدم عمر بن عبد العزيز عامل الوليد على المدينة مسجد النبي ، وأدخل فيه حجرات أزواج النبي وبينها حجرة عائشة .. بذلك أصبح القبر النبوي داخل المسجد . وبالعمر في تجميل المسجد .. زخرف المحراب ، والشرفات ، والمنابر ، زخرفا لا عهد للعرب به . وعنى بسقف المقصورة النبوية عناية جعلته بدعا في الفن . وقد أعجب الوليد بن عبد الملك بما رأى من ذلك حتى لقد نظر الى ابان بن عثمان يقول له : « أين بناؤنا من بنائكم » لكن ابان أجابه : « انا بنيناه بناء المساجد وبنيتموه بناء الكنائس »

حريق المسجد

تمت هذه العمارة سنة تسعين للهجرة .. وظل المسجد قائما بها الى سنة ست وستين ومائة ، حين جاء المهدي العباسي فأمر بزيادة المسجد .. وزيد في ناحيته الشمالية زيادة كبيرة اتخذت لها عمارة الوليد طرازا . واستقرت

رقعة المسجد على زيارة المهدي الى سنة ٦٥٤ للهجرة ، اذ ترك موقد المنصايح مشعلا في مخازن المسجد ، امتدت النار منه الى ما حوله ، وسرت الى المسجد فلم تبق على خشبة واحدة . أكلت النار المنبر النبوي والأبواب والخزائن والنوافذ والمقاصير وما اشتملت عليه من كتب ، وامتدت الى كسوة الحجر . ووقع السقف الذي كان بأعلى الحجر على سقف بيت النبي ، فوقها جميعا في الحجر وعلى القبور التي بها .

كانت بلاد الدولة الاسلامية حين ذلك في قلق واضطراب.. لذلك اكتفت كل منها بأن بعثت من مواد العمارة الى المدينة ما أرضى عقيدتها . وقام أهل المدينة بما يستطيعون من عمارة المسجد .. لكن أحداث الاضطراب في رقعة المملكة ، كانت تقف العمل وتجعله اذا سار يسير في غير خطة مرسومة . فلما تولى الظاهر بيبرس أمر مصر ، بعد ست سنوات من الحريق ، جهز الصناع وكل ما يحتاج اليه البناء وبعث بذلك كله الى المدينة .. وسار العمل في البناء حتى تم ، وقام المسجد كما كان قبل الحريق

لم يطرأ على عمارة المسجد بعد ذلك ، الى سنة ست وثمانين وثمانمائة ، تغيير جوهري . وكل ما حدث أن جدد سقفه أو زيد فيه طمعا من بعض أمراء البلاد الاسلامية ، وأمراء مصر بنوع خاص ، في المثوبة . أما في سنة ست وثمانين وثمانمائة ، فقد انقضت صاعقة على مئذنة المسجد الرئيسية.. فانتقلت النار من المئذنة الى سقف المسجد ، ثم الى البناء كله ، حتى احترقت المقصورة والمنبر والكتب والمصاحف .. ولم يسلم من الحريق الا الحجر وقبة مبنية بصحن المسجد

قائشباي يعيد المسجد

كان التطور الذي حدث في عمارة المسجد ، بعد انقضاء الصاعقة عليه ، أكثر وضوحا .. لقد رأيت كيف انتقل من بساطته الأولى الى هذه العمارة الفنية البديعة التي ابتغى بها الملوك والأمراء مثوبة الله . أما بعد

حريق الصاعقة ، فقد وجد أمير مصر الملك الأشرف قايتباى من أعادوا بناء المسجد على صورة بلغت غاية التألق ، واقتضت من النفقة ستين ألفا ذهباً من الجنيهاً

كانت مصر هي التي تقوم بعمارة المسجد النبوى - أو بالحظ الأكبر منها في تلك العهود - فلما آلت الخلافة لآل عثمان بالآستانة ، وجه سلاطين آل عثمان الى المسجد عناية فائقة .. ففي القرن العاشر الهجرى عمره السلطان سليم الثانى وشيد به محراباً جميلاً لا يزال قائماً الى اليوم غرب المنبر النبوى . وفي القرن الثالث عشر بنى السلطان محمود القبة الخضراء

وفي عهد السلطان عبد الحميد ، فى الثلث الأخير من القرن التاسع عشر، لوحظ أن المسجد بحاجة الى العمارة بعد أن انقضى على عمارته أربعة قرون لم تحدث به أثناءها عمارة هامة . وقد كان المهندسون يهدمون جزءاً من المسجد ويقيمون مكانه ما يحل محله ، ثم يهدمون بعده جزءاً غيره ، حتى تمت عمارة المسجد كله فيما بين سنة ١٢٦٥ ، وسنة ١٢٧٧ . وقد زيد فى الجدار الشمالى ما كفى لبناء مخازن ومكاتب وأحواض للوضوء . وشيدت المئذنة المجيدة على طراز بالغ غاية الروعة والابداع . وبلغت نفقات هذه العمارة ثلاثة أرباع المليون من الجنيهاً المجيدة

خطوط دائمة

وقد سجلت هذه العمارة من آثار الفن الاسلامى فى بناء المسجد ما لا يزال حتى اليوم بهجة الأنظار .. كتبت على جدران المسجد سورة الفتح ، وأسماء الله الحسنى ، وقصيدة البردية ، وأسماء النبى عليه السلام ، بخط بالغ غاية الروعة والدقة الفنية . والخط العربى هو الذى حل محل التصوير والنقش ، بعد أن حارب الاسلام التماثيل والصور . وقد قضى الخطاط العظيم عبد الله بك زهدى عشر سنوات فى كتابة ما كتب على جدران المسجد من هذه الآيات الرائعة فى عالم الفن

هذه العمارة هي القائمة الى اليوم ، لم تزد عليها الا بعض ترميمات في محاريبه وفي أرضه وفي عمده

الروضة النبوية

على أن ما أشرت اليه من أمر المسجد لم يتناول القسمين الهامين فيه : أقصد القبر النبوي والروضة النبوية - والروضة هي الجزء الواقع من المسجد بين قبر رسول الله ومنبره ، وذلك لما روى عنه عليه السلام أنه قال : « بين قبري ومنبري روضة من رياض الجنة » . والروضة تمتد اليوم الى ما بعد منبر النبي ويطلق اسمها على كل القسم الذي به عمد مسجد النبي . وقد نقشت عمد الروضة بالأزهار ، وقام على جانب منبر النبي محرابان آية في الدقة والجمال . وفرشت أرض الروضة بأثمن السجاجيد

وتعتبر الروضة النبوية من أكثر الأماكن الإسلامية تقديسا .. فكل من أم المسجد بدأ بزيارة القبر النبوي ، ثم ذهب الى الروضة يصلي فيها تحية المسجد ، ويبقى الى الفرض الذي يلي حضوره .. وقد يبقى بها الى أكثر من فرض . وهو يجد فيها المصاحف ودلائل الخيرات موضوعة على كراسيها ، يقرأ فيها من شاء تبركا ومثوبة

فأما القبر النبوي والحجرة النبوية ، فموضع الاجلال والتقدیس .. يؤمهما الزائر لأول ما يدخل المدينة ، كما يؤم الكعبة لأول ما يدخل مكة .. ويتلو عندهما من الدعوات ما شاء الله أن يتلو ، ويصلي في الروضة على مقربة منهما ما شاء الله أن يصلي . وجمال الحجرة والقبر في داخلهما يأخذ بالنظر ، لكنهما يثيران في النفس من العبرة ما يزيدها للنبي العربي اجلالا وتقديسا

لقد كانت هذه الحجرة آية في البساطة يوم دفن فيها رسول الله . كانت قبرا سوى على صاحبه عليه السلام . وظلت حجرة القبر على بساطتها الى أن أمر الوليد بن عبد الملك بضمها ، وضم بيوت أمهات المؤمنين الى

المسجد .. عند ذلك ، أقام عمر بن العزيز الحجرة فخمة لا تمت الى بساطتها الأولى بأية صلة . ولقد أنكر أولو الورع من المسلمين ما حدث من ذلك ، وعدوه بدعة ، ورأوا فيه خروجاً على الأسوة الحسنة ..

لكن ذلك لم يغير شيئاً من اتجاه المسلمين بعد الى الناحية التى اتجه اليها الوليد بن عبد الملك .. فقد تجدد بناء الحجرة بعد ذلك غير مرة ، وفى كل مرة كانت عمارتها تزداد فخامة عن المرة التى سبقتها .. ثم ان الحجرة كسيت كسوة مطرزة أجمل طراز .. ثم جعلت الهدايا تهدى اليها ، وفى مقدمتها قناديل الذهب والفضة . وقد بلغ وزن قناديل الذهب فى وقت من الأوقات تسعة قناطير . كذلك أهديت للحجرة هدايا من الأحجار النفيسة ، كان بينها حجر من الماس أطلق عليه اسم الكوكب الدرى ، قدرت قيمته بثمانمائة ألف جنيه ذهباً . وعلق تحت هذا الكوكب الدرى ، كف من الذهب مرصع بالجواهر فى وسطه حجر من الماس أصغر من الكوكب الدرى .. هذا الى نفائس كثيرة لا تقدر بثمان

لم يبق لهذه النفائس اليوم أثر بالحجرة ، لأن تقلب الأحوال والنظم السياسية على الحجاز فى هذا القرن العشرين أدى الى نقلها الى حيث توجد اليوم

القبر النبوى ، والروضة ، والمسجد النبوى .. هذه هى المجموعة المقدسة التى تلى فى نظر المسلمين الكعبة بيت الله الحرام . وهى لا ريب مجموعة لا نظير لها بين الآثار الاسلامية فى قيمتها التاريخية وفى قيمتها الفنية

المسجد الأقصى

تناولت الفصول السابقة المامات سريعة عن الأماكن المقدسة بالحجاز..
وننتقل الآن الى فلسطين ، لنحدث عن أماكنها المقدسة .. وأولها المسجد
الأقصى ..

، والمسجد الأقصى من الأماكن المقدسة عند المسلمين .. لكنه يرجع في
تاريخه الى عهد قديم سبق الاسلام والمسيحية واليهودية جميعا . وهو في
سبقه الأديان الثلاثة ، يشبه الكعبة وان لم يكن له قدمها . والمسجد
الأقصى يقوم على الصخرة التي كان يقوم عليها هيكل سليمان ، وقد روى
عن رسول الله أنه قال : « ان الله أوحى الى داود ، أن ابن لى بيتا أذكر
فيه » فخط داود خطة بيت المقدس ، فأذا تربيعها بدار رجل من بنى
اسرائيل .. فسأله داود أن يبيعه اياها فأبى ، فحدث داود نفسه أن
بأخذها ، فأوحى اليه الله أن يا داود أمرتك أن تبني لى بيتا أذكر فيه ،
فأردت أن تدخل فى بيتى الغصب ، وليس من شأنى الغصب . ان عقوبتك
ألا تبنيه . قال : يارب فمن ؟.. ولدى ؟.. قال : ولدك .. وبناء سليمان
ابن داود

وتذهب بعض الروايات الى أن داود أقام بيتا صغيرا للعبادة ، وأن
سليمان هو الذى أقام الهيكل من بعده . وفى رواية أخرى ، أن البيت
الذى أقيم على الصخرة المقدسة يرجع فى تاريخه الى ما قبل داود .. ولعله
نسب الى الملائكة أو الى آدم كما نسب بناء الكعبة

وبنى سليمان الهيكل على الصخرة المقدسة التى اختارها أبوه بوحى
من ربه .. بناء فخما على طراز هياكل المصريين القدماء ، فجعل له بابا رفيع
العمد ، وجعل له من وراء الباب بهوا قسيحا تقوم فيه العمدة .. ثم جعل
من وراء البهو قدسا للاقداس . وكما اتخذ طراز المصريين فى نظام البناء ،
اتخذ طرازهم فى جلاله وفخامته وعظمته . ولم يكن عجبا أن يبنى سليمان

على الطراز المصرى الفرعونى ، وكثيرا ما كانت مصر تغير على فلسطين ونخضعها لحكمها .. هذا الى أن البلاد المشاطئة للجانب الشرقى من البحر الأبيض المتوسط — مصر وفلسطين وفينيقييا واليونان — كانت دائمة الاتصال فى شئونها التجارية والفنية والثقافية

احتراق الهيكل

كانت مصر حاكمة فلسطين قبل داود وسليمان .. وقد استقلت فلسطين عن مصر فى عهدهما ، ثم عادت بعد وفاة سليمان الى مصر فى عهد الفرعون شيشاك . وحكمت فارس فلسطين بعد ذلك ، فاحترق بيت المقدس واحترق الهيكل أثناء حكمها ، ثم أقام حاكم الاقليم بيت المقدس بأمر كسرى ، ثم أقام الهيكل من غير أن يجعله فى مثل جلاله وعظمته يوم أتم سليمان تشييده

كان حريق الهيكل فى سنة ٥٨٦ قبل الميلاد .. وقد أعيد بناؤه فى سنة ٥٢٠ قبل الميلاد . وأهديت اليه حاملات الشمع والمباخر المصنوعة من الذهب ، فعوضته بعض الشئ عما أصابه بعد بانيه الأول

استقر اليهود بفلسطين من بعد موسى ، واتخذوا من هيكل سليمان معبدهم والمكان المقدس لشعائهم .. واذا كانت فلسطين معرضة لغزو مصر وغزو فارس وغزو الروم ، فقد حصنوه أكمل تحصين ، وقووا عمارته وأكثروا من النفائس المهداة له .. بذلك أصبح قلعة ومعبدا فى آن واحد . وقد حاصر الأمباطور الرومانى بومبى بيت المقدس فى سنة ٦٣ قبل الميلاد فصمدت له ، وكان حصن الهيكل المقدس من الحصون المنيعة التى قاومت .. صحيح انه انتهى الى اخضاعها ، لكن مقاومتها كانت ذات خطر حين الحصار من ناحية ، ومهدت للثورة بالحكم الرومانى بعد ذلك بقليل من ناحية أخرى

هيرودى الفلسطينى

على الرغم من هذه الثورة ، تمكن هيرودى الفلسطينى من أن يكون

عامل روما على فلسطين ، وأن يخضعها لحكم الأباطورية . وقد استطاع بمهارته أن يحمل اليهود من رعاياه على اقراره على هدم الهيكل واعادة بنائه . وقد هدمه وأعاد بناءه على صورة من الفخامة ، ضاعفت مساحة بعض الأجزاء فيه ، ورفعت البعض الى ضعف ارتفاعها السابق وخلعت عليه بهاء أعاد له بهاءه حين بناء سليمان ان لم يزد عليه ، كما جعل به من النفائس أكثر مما كان فيه من قبل

ظل هيكل سليمان المكان المقدس لليهود بفلسطين الى أن استقرت المسيحية بها وحاربت اليهودية فيها . وقد جنى ذلك على الهيكل حتى كاد يصبح أطلالا . فلما غزا العرب سوريا ومصر ، أحالوا الهيكل مسجدا ، هو المسجد الأقصى .. على ان اسم المسجد الأقصى قد أطلق عليه في الاسلام ، قبل غزو العرب بلاد الشام ، وقبل دخولهم فلسطين . أطلق عليه في القرآن لمناسبة حديث الاسراء في قوله تعالى : « سبحان الذى أسرى بعبده ليلا من المسجد الحرام الى المسجد الأقصى الذى باركنا حوله » . والمسجد الحرام هو مكة .. والمسجد الأقصى هو الهيكل بيت المقدس .. وورود هذه التسمية في القرآن ، تشهد بأن لفظ المسجد كان مستعملا عند العرب لكل مكان للسجود والعبادة ، وانه لم يكن مقصورا — كما هو اليوم — على أماكن العبادة الاسلامية

فالمسجد الحرام لم يكن يزيد — يوم نزلت هذه الآية — على الكعبة ومطافها . وهذا المسجد لم يكن يومئذ اسلاميا كما هو اليوم ، بل كان للعرب جميعا على اختلاف نحلهم ، وكانت أصنام العرب قائمة فيه ، والمسجد الأقصى لم يكن قد اتصل بالاسلام والمسلمين فى شيء الا فى حديث الاسراء

الاسراء والمسجد الأقصى

والاسراء هو الذى جعل المسلمين يتطلعون ، بعد أن فتحوا الشام ووضعوا أيديهم على بيت المقدس ، الى المسجد الأقصى لجعله من أماكنهم

المقدسة .. فأكثر الروايات التي وردت عن الاسراء ، تذهب الى أن رسول الله قيد البراق بالصخرة المقدسة حين بلغ به الاسراء الى بيت المقدس ، وانه صلى على أطلال هيكل سليمان اماما لأبراهيم وموسى وعيسى ، وانه عرج الى السماء بعد ذلك متخذاً من صخرة يعقوب مرتكزا للمعراج . فلما بلغ سدرة المنتهى ، وأتم الله آيته ، عاد رسوله الى بيت المقدس فامتطى البراق كرة أخرى الى مكة

لا جرم ، وذلك شأن المسجد الأقصى ، أن يتطلع المسلمون اليه على انه من أماكنهم المقدسة .. فاذا أضفت الى ذلك أن المسجد الأقصى كان قبلة المسلمين يتوجهون اليه في صلواتهم منذ بعث رسول الله ، وطيلة مقامه بحكمة ، وفي السنتين الأولى والثانية بعد هجرته الى المدينة ، الى أن حولت قبلة المسلمين الى المسجد الحرام .. اذا أضفت هذا الاعتبار الى الاسراء ، لم يكن عجبا أن ترى المسلمين يتخذونه مكانا مقدسا لهم ، ويقيمون فيه حرما كالحرم المكي والحرم المدني ، وأن يكون له عندهم من القداسة ما لا يزال يقتضيهم عناية به كعنايتهم بالبيت الحرام والمسجد النبوي من حيث العمارة والصيانة والرعاية

الاهتمام بالمسجد

على أن المسلمين لم يعيروا المسجد الأقصى عنايتهم في عهدهم الأول .. وما كان لهم أن يفعلوا ، وهم لم يفتحوا بيت المقدس الا في عهد عمر بن الخطاب . وما كان عمر ليفكر في عمارة المسجد الأقصى ، أو في اقامة القبلة على الصخرة المقدسة في أعقاب الفتح ، بينما المسلمون في شغل بمحاربة الروم وفارس .. بل لقد كان تفكير عمر متجها حين فتح بيت المقدس الى اقناع أهلها حتى يستريحوا الى حكم المسلمين ، ويرويه خيرا من حكم الروم

لما تغلب عمرو بن العاص على القائد الروماني أرطبون في فلسطين ، وكان على أبواب بيت المقدس ، أعلن بطركها صفرنيوس انه يريد التسليم

والصلح على شريطة أن يجيء الخليفة عمر بنفسه الى المدينة المقدسة .. وسار عمر من المدينة الى ميدان الحرب لعقد هذا الصلح وابرام شروطه وفتحت بيت المقدس أبوابها أمامه بعد توقيع الصلح . وصحب صفرنيوس عمر يوما خلال المدينة يريه آثارها ومواضع الحج فيها .. واذا أدرك عمر موعد الصلاة ، وهو بكنيسة القيامة ، طلب البطرك اليه أن يصلى بها ، فهى من مساجد الله .. لكن عمر اعتذر بأنه ان يفعل اتبعه المسلمون ، واعتبروا عمله سنة مستحبة .. فأدى ذلك الى اخراج المسيحيين من كنيستهم ثم صلى فى مكان قريب من الصخرة المقدسة على أطلال الهيكل . وفى هذا المكان أقيم من بعد مسجد عمر ، وهو الذى أطلق عليه اسم المسجد الأقصى .. أقامه عمر من ساذج البناء ، كمسجد النبی بالمدينة يوم أقيم وظلت الدولة الاسلامية من بعد ، فى شغل بحروبها طيلة عهد عمر وعثمان ، ثم شغلت بالخلاف ما بين على ومعاوية .. لذلك لم يفكر أحد فى عمارة مسجد عمر ببيت المقدس عمارة تضارع بيوت العبادة فى بلاد الشام ، وظل الحال على ذلك الى أن تولى عبد الملك بن مروان الأموى الحكم

كانت الثورة على الأمويين ما تزال مشبوبة فى الحجاز ، وعلى رأسها عبد الله بن الزبير بمكة .. وكان هؤلاء الثائرون موضع عطف الكثيرين من العرب والمسلمين لأنهم كانوا ينتمون الى أهل بيت رسول الله .. ثم انهم كانوا سدنة البيت الحرام بمكة والقائمين على شئون مسجد النبی عليه السلام بالمدينة ، فكان حج المسلمين واختلاطهم بهم يزيدهم عطفًا عليهم

قبة الصخرة

وقد أشرنا الى أن عبد الملك بن مروان ، كان قد شغف بالعمارة البيزنطية لمقامه بدمشق بين كنائس النصارى وآثارهم وانه لذلك كان أول من قام بعمارة البيت الحرام بمكة على نحو زواج بين البساطة وما يطمئن له فن العمارة .. واعادته بناء البيت الحرام ، لم يكن أول عمل له فى العمارة .. فقد قام قبل ذلك بتشبيد مساجد بالشام فيها جمال فنى يأخذ

بالقلوب والأبصار ، على أن أروع آياته في البناء وأشدّها أخذًا بالنظر كان في عمارة قبة الصخرة وبناء المسجد الأقصى .. فقد شاد القبة على نحو بز ما قام به من بعد في عمارة البيت الحرام ، بل لعله قد بز ما بناه من المساجد والعمائر

وقد دهش الناس لفائق عنايته ببناء قبة الصخرة ، وترامت أنباء ذلك الى مختلف الأمصار الاسلامية ، وتسائل كثيرون ما قصده من هذه المبالغة في عمارة القبة ؟.. وزاد في تساؤلهم أن عبد الملك حظر الحج على المصريين وأهل الشام بحجة الثورة القائمة بالحجاز . عند ذلك أذاع عبد الله بن الزبير في الناس أن عبد الملك قضد من بناء القبة والمسجد الأقصى الى صرف الناس عن حج البيت الحرام والمسجد الحرام الى حج المسجد الأقصى والصخرة المقدسة متأسيا في ذلك بأبرهة حين بنى بيت صنعاء ليصرف الناس عن بيت مكة . ويتعذر القطع بصحة ما أذاعه ابن الزبير من هذه الدعاية ، وبخاصة لأن ابن الزبير مات بعد ذلك بقليل .. وعلى أثر موته استولى عبد الملك على مكة ، وقام بعمارة المسجد الحرام على نحو أرضى به ذوقه الفنى ، كما أنسى المسلمين تلك الدعاية التى أذاعها ثائر الحجاز ضده

وأرصد عبد الملك لبناء القبة مالا كثيرا ، قيل انه خراج مصر سبع سنين .. وجمع الصناع من الفينيقيين ، واستعان بصناعة بيزنطية . وبعد أن وضع تصميم لبناء القبة رضى عبد الملك عنه ، تولى رجاله تنفيذ ذلك التصميم وأتموه على خير وجه . ومع ذلك ، بقى من المال الذى خصص لهذا الغرض مائة ألف دينار ، أنفقت في عهد الوليد بن عبد الملك لاتمام بناء المسجد الأقصى ، ولتقوية أجزاء وهت منه

ولم تكن عناية عبد الملك بعمارة المسجد الأقصى دون عنايته بعمارة قبة الصخرة ، فقد جلب له عمد الرخام .. أقام عليها خمس عشرة قبة وسقفه بالخشب الجميل المتين ، وجمل به أربعة منابر وأربعة وعشرين صهريجًا ، وجعل له أبوابا كثيرة وعلق فيه قناديل ، بالغ الرواة في عددها حتى بلغ به بعضهم خمسة آلاف ، ورتب له ثلاثمائة خادم

ظل المسجد ، وظلت القبة بعد ذلك ، أربعة قرون في يد المسلمين محاطة من آى الاجلال والاعظام بما أحيط به البيت الحرام والمسجد الحرام ، حتى لم يكن يباح لغير مسلم أن يظأ أرضهما . فلما كانت أواخر القرن الخامس الهجرى ، دخل الصليبيون الشام وتقدموا الى فلسطين ووضعوا يدهم على بيت المقدس فى سنة ٤٩٢ هجرية . وقد أقاموا ببيت المقدس قرابة قرن كامل ، حتى أجلاهم صلاح الدين الأيوبي عنه فى سنة ثلاث وثمانين وخمسائة .. بذلك عادت الى المسجد والى القبة قدسيتهما الأولى ، وعاد حراما على غير مسلم أن يدخلهما أو يظأ أرضهما

على أن الحروب الصليبية ، ظلت متداولة بعد ذلك بين المسيحيين من أهل أوروبا والمسلمين القائمين حول البحر الأبيض المتوسط . وقد استولى الصليبيون أثناءها على القدس غير مرة ثم أجلوا عنها .. واضطربت شئون المملكة الاسلامية بعد ذلك ، بسبب تعدد الدول واقتتال الملوك والأمراء الى أن آل الأمر الى آل عثمان . ولم يغير ما حل بالمملكة الاسلامية من الاضطراب من حرمة بيت المقدس على المسلمين ، ومن حرمة المسجد والقبة بنوع خاص . فلم يبح لغير مسلم أن يدخلهما أو يظأ أرضهما الا بعد حرب القرم فى أواخر القرن التاسع عشر الميلادى ، ولم يبح ذلك الا بمقدار ، وفى حدود ضيقة

ولا يزال المسجد الأقصى ، ولا تزال القبة ، ولهما من القداسة عند المسلمين ما كان لهما من قبل ، على رغم تبدل الأحوال السياسية .. وقدسيتهما هى التى تجعل الأمم الاسلامية ، وتجعل ملوك المسلمين يحرصون على عمارتهما الحين بعد الحين وكيف لا يذكر المسلمون المسجد الأقصى وهم يذكرون قوله تعالى : « سبحان الذى أسرى بعبده ليلا من المسجد الحرام الى المسجد الأقصى الذى باركنا حوله لنريه من آياتنا انه هو السميع البصير » .. انهم سيذكرونه ويذكرون ما حوله مما بارك الله . وسيبقى هذا المسجد لذلك حرما مقدسا ، ما بقى الاسلام وما بقى المسلمون

- ٢ -

الأماكن المسيحية المقدسة

- * كنيسة المهد بيت لحم
- * كنيسة القيامة

كنيسة المهد

تناولت الفصول السابقة عن الأماكن المقدسة بالشرق الأوسط ، المامات عن بيت الله الحرام وعن المسجد الحرام بمكة ، وعن المسجد النبوي بالمدينة ، وعن المسجد الأقصى بيت المقدس .. وهذه الأماكن المقدسة اسلامية كلها

فلنتنقل بالحديث الآن الى الأماكن المسيحية المقدسة بفلسطين . وسنكتفى بأن نتناول مكانين اثنين منها : كنيسة المهد ببيت لحم ، وكنيسة القيامة ببيت المقدس

كان في وسعنا أن نتحدث عن أماكن أخرى بفلسطين لها قدسيته عند المسيحيين .. لكننا قصرنا حديثنا حتى الآن على الأماكن المقدسة التي لقيت على تعاقب الأجيال من العناية بعمارتها ما رأيت . ولم يلق أثر مسيحي من هذه العناية بفلسطين ما لقيت كنيسة المهد ، وكنيسة القيامة ولا عجب أن يلقيا كل هذه العناية ، واحداهما تقوم ذكرا لمولد عيسى ، والأخرى تقوم ذكرا لدفنه قبل الصعود .. ومولد عيسى وقصة صلبه ودفنه وصعوده معجزتان على التاريخ ، من أروع ما قص التاريخ

ولد عيسى

فمولد عيسى معجزة في الاسلام ، كما انه معجزة في المسيحية .. فقد نفخ الله من روحه في مريم ، فحملت فولدت عيسى .. فكان ذلك آية من آيات الله . وفي ذلك يقول تعالى : « واذكر في الكتاب مريم اذ انتبذت من أهلها مكانا شرقيا . فاتخذت من دونهم حجابا فأرسلنا إليها روحنا فتمثل لها بشرا سويا . قالت : انى أعوذ بالرحمن منك ان كنت تقيا . قال : انما أنا رسول ربك لأهب لك غلاما زكيا . قالت : أنى يكون لى غلام ولم يمسنى بشر ولم أك بغيا . قال : كذلك قال ربك هو علنى هين

ولنجعله آية للناس ورحمة منا وكان أمرا مقضيا »

والرواية المسيحية ، تجرى بأن مريم وضعت عيسى .. لما أحست قر الشتاء عقب وضعه ، حملته الى مزود قريب منها كانت الأبقار تأكل فيه ، أرادت بذلك أن يبعث اليه تنفس الأبقار من الدفء ما يقيه قارس البرد في ذلك الفصل القري . أما رواية القرآن لمولد عيسى فهي : « فأجاءها المخلص الى جذع النخلة قالت : يا ليتنى مت قبل هذا وكنت نسيا منسيا . فناداها من تحتها ألا تحزنى قد جعل ربك تحتك سريا . وهزى اليك بجذع النخلة تساقط عليك رطبا جنيا . فكلى واشربى وقرى عينا » . ترى هل حملت مريم طفلها بعد ذلك الى مزود الأبقار لينال ما ابتغت له من الدفء ؟ ذلك ما لا محل الآن للكلام فيه

هيرودس يقتل الاطفال

ذكروا أن هيرودس ، حاكم فلسطين من قبل روما في ذلك العهد ، رأى في منامه رؤيا أفزعته .. فطلب الى أهل العلم بالأحلام أن يفسروا له ما رأى ، فذكروا له أن من بين الأطفال الذين ولدوا في الأعوام الخمسة الأخيرة طفلا ، سيكون له شأن يقض مضجع الامبراطورية ويسوء أثره فيها . ورأى هيرودس أن الخير في قتل الأطفال الذين ولدوا في هذه الفترة جميعا . وقتلهم ودفنهم في مغارة بيت لحم . وكان عيسى قد ولد في هذه الفترة ، ففرت به مريم الى غار أقامت به حتى فرغ هيرودس من ارتكاب جريمته وقتل من قتل من الأطفال .. ثم انها تحملت بابنها ممتنطة حمارا وسارت به ومعها يوسف النجار حتى بلغت مصر . وهناك أقامت ثلاث سنوات — في رواية — واثنى عشرة سنة — في رواية أخرى — ثم عادوا بعد ذلك الى مسقط رأسه ، ومقر آبائها وأهلها بفلسطين

أين ولد عيسى ؟

أين ولد عيسى؟.. المقرر أنه ولد ببيت لحم ، على مقربة من بيت المقدس . وسترى خلال هذا الحديث تحديد المكان الذى ولد فيه .. لكن قوما

يذهبون الى أنه ولد بالناصره ، ويستدلون على ذلك بنسبته اليها . أليس هو عيسى الناصري ؟.. لكن أصحاب الرأي المقرر ، لا يترددون في القول بأن تسميته عيسى الناصري لا ترجع الى مولده بالناصره ، وانما ترجع الى مقامه بها ، وقيامه بتعاليمه فيها ، والى ما نسب اليه من المعجزات في بحيرة طبرية التي تقع الناصره عليها

ولسنا تأخذ بنصيب في هذا الجدل الذي ثار حول مولد عيسى ، كما ثار حول مولد الأنبياء والعظماء في مختلف العصور .. وغاية ما نذكره ، ان المدة التي انقضت بين مولد المسيح عليه السلام وبين اقامة الهيكل الذي شاده الامبراطور قسطنطين ، تذكارا لهذا المولد .. هذه المدة تزيد على ثلاثمائة سنة

هيكل قسطنطين

والهيكل الذي شاده قسطنطين ، هو النواة التي شيدت حولها كنيسة المهد على ما نراها اليوم . وكنيسة المهد هي الأثر الذي يذكر مولد السيد المسيح كما تقدم . وعلى مقربة منها ، تقوم مغارة أطلق عليها اسم مغارة الحليب .. يذكرون انها هي التي أوت اليها مريم ، وأقامت بها مع ابنها .. بينما كان هيرودس يقتل الأطفال الذين ولدوا في الفترة التي ولد فيها المسيح . وهذه المغارة جديرة بأن تقف بالقارىء وقفة قصيرة عندها ، بعد أن تتم حديثنا عن كنيسة المهد

قدمنا أن هذه الكنيسة ، أنشئت حول الهيكل الذي أقامه الامبراطور قسطنطين ، بعد ثلاثة قرون من مولد السيد المسيح .. ذكرا لهذا المولد . ولم يكن الموضع الذي أقيمت به خلاء يوم أقام قسطنطين الهيكل ، بل كان به معبد لادونيس .. أقيم في عهد الامبراطور هادريان ، فأمر به قسطنطين فهدم ، وقام الهيكل المسيحي مكانه . وسرى حين الكلام عن كنيسة القيامة التي أقامها قسطنطين كذلك ، انها قامت على أطلال معبد أقامه هادريان بيت المقدس لعبادة الزهرة .. أمصادفة هذه ؟.. أم هي دليل على

ان هادريان كان يتعقب آثار المسيحية ويقيم فيها المعابد الوثنية ، ليعنى على الدين الجديد قبل أن يستفحل أمره ؟ !

كان الهيكل الذى أقامه قسطنطين جميلا ، ولكنه لم يكن فسيح الجنبات .. فلما آل أمر الامبراطورية الى جوستينيان ، أقام مكان الهيكل معبدا أفسح رقعة وأكثر بهاء . ولما انشعبت المسيحية الى شعبها المختلفة ، بدأت كل شعبة تبنى فى هذا المكان المقدس ، وحول الكنيسة الأولى ، ما طاب لها البناء . ومبانى طوائف الروم واللاتين والسريان ، ما تزال قائمة الى اليوم ، وما يزال لاختلاف هذه الطوائف أثره فى شعائر كنيسة المهد

مغارات الكنيسة

وكنيسة المهد اليوم ، فسيحة الجنبات مترامية الأطراف .. وأفنيتها تقوم فوق مغارات كثيرة .. يروى لك الموكلون بها شيئا كثيرا من القصص المنسوب لها . فواحدة من هذه المغارات يطلق عليها اسم مغارة الأطفال ، ونذكر قصتها أنها المغارة التى دفن هيرودس فيها من أمر بقتلهم من الأطفال تفسيراً للحلم الذى أسلفنا أنه رآه . ومغارة أخرى بها صورة زيتية لقديس قيل أنه القديس جيروم الذى قضى بهذه المغارة ثلاثا وعشرين سنة يترجم الانجيل . وبين هاتين المغارتين وحولهما ، مغارات أخرى زينت كل واحدة منها بصورة زيتية تمثل المشهد الذى تخلد المغارة ذكره

تقع مغارة المهد على مقربة من مغارة الأطفال .. ومغارة المهد قبو ضيق ، يهبط اليه الانسان على درج تفر فى الصخر وهذا الدرج يصل بين المغارة وبين مذبح كنيسة المهد وهيكلها وقد تفرقت فى الصخر ، الى جانب هذا القبو ، فجوة ترتفع الى قامة الانسان ، وضعت فيها صورة العذراء .. وثبتت فى مكان منها نجمة من الفضة تحدد المكان الذى قررت الطوائف المسيحية أنه مكان مولد المسيح ، وهو لذلك مكان مبارك عند الطوائف كلها . وكثيرا ما كانت بركته سبب منازعات دامية بين الطوائف المختلفة ، ابتغاء الاستئثار بهذه البركة

يقابل نجمة الميلاد ، حوض من الحجر موضوع في الأرض ، يذكرون انه المزود الذى كانت الأبقار تأكل فيه ، حين وضعت مريم طفلها ثم نقلته الى المزود اتقاء البرد القارس . ولا أظن أحدا يذهب الى أن هذا الحوض من الحجر ، هو المزود الذى وضع المسيح فيه بالفعل . فقد رأيت أن أول صورة لكنيسة المهد ، لم تكن الا بعد ثلاثة قرون من وفاة السيد المسيح ، وأن معبدا أقامه أدونيس في هذا المكان ، قبل بناء الكنيسة المسيحية لأول مرة

وهذا الحوض من الحجر الذى يمثل المزود ، ينحدر دون نجمة الميلاد قرابة مترين ، ويبعد عنها نحو ثلاثة أمتار ؛ أفىكون هذا لأن مريم كانت فوق أكمة ساعة الوضع ، وان الأبقار ومزودها كانت فى سفح هذه الاكمة ، أم ان مريم كانت فى مغارة هى محرابها الذى أشار اليه القرآن ، وان الأبقار كانت فى بطن من الجبل دون المغارة .. هنا يجب أن أقول الله أعلم !

فجوتان عجيبتان

ليست كثرة المغارات فى هذا الموضع مثارا لعجب .. فهو جبل منبسط السطح ، يرتفع ثمانمائة متر فوق سطح البحر ، وتقوم بيت لحم على سطحه .. ولعل مغاراته الكثيرة تفسر لنا أمرا يحار الانسان أول الأمر فى تفسيره . فأنت اذ تدخل من باب الكنيسة الى البهو الذى يفصل بين الباب ومذبح الكنيسة وهيكلها .. ترى فى أرض البهو بايين يستوقفان نظرك . فاذا فتح أى من هذين البابين ، ألفيته يغطى فجوة أشبه شىء بالمغارة أو الجب فاذا أضيئت هذه الفجوات ، رأيت أرضها من الفسيفساء المنقوشة نقشا بديعا يمثل الفاكهة والنبات والطير وما اليها

وقد كشف هاتين الفجوتين — منذ أمد غير بعيد — مهندس فرنسى كان يقوم بترميم بعض الأجزاء فى أعلى الكنيسة . ويظهر انه كان قد وقع فى قراءته على ما هداه الى أن هذه الكنيسة تقوم فوق آثار كنيسة

سبقتها ، كما هداه الى موضع هذه الفسيفساء . وقد حفر في هذين المكانين اللذين تقوم الأبواب فوقهما فصدق ظنه . ولم يحفر في غيرهما لأن قراءاته دلته على أن ليس في غيرهما ما يهدى الحفر اليه

قلت ان الفجوتين تقعان في البهو ، بين باب الكنيسة ومذبحها وهيكلها . والمذبح والمعبد لكنيسة المهد آية في الابداع والروعة الفنية ، فضلا عن قيمتهما لما يحتويان عليه من تماثيل وآنية من الذهب أهداها المؤمنون الذين بسط الله لهم في الرزق طلبا للمثوبة ، وابتغاء المزيد من سعة الرزق

باب الكنيسة

أما باب هذه الكنيسة ، فأمره عجب .. لقد ألف الناس في أبواب الكنائس بهاء وعظمة وجلالا ، وآلفوا فيها دقة في الفن توازى سائر أجزاء الكنيسة أو تزيد عليها . وكنيسة المهد من أفخم الكنائس وأفسحها رقعة وأكثرها مهابة .. أما بابها فأعجوبة من الأعاجيب .. فهذا الباب أدنى لأن يكون فجوة ضيقة لا يمكن أن تكون بابا لمعبد من المعابد بالغا ما بلغ صغره ، وأنت حين ترى هذا الباب ، لا يذهب بك الظن الى أنه أكثر من مدخل لصومعة راهب من الرهبان نذر الرواقية والتقشف . وكيف يزيد على ذلك ، وهو دون قامة الانسان ارتفاعا ، ولا يمكن لأكثر من رجل واحد أن يدخل منه حائيا رأسه ؟ !

وانما دعا لبناء الباب بهذا الضيق ، ما ذكرنا من أن طوائف الروم واللاتين والسرمان ، قد اشتركت على الأجيال في بناء هذه الكنيسة والمنازل المحيطة بها ، وان بين هذه الطوائف من الخلاف ما تخشى مغبته اذا ثار .. فلكل طائفة من هذه الطوائف حقوق في الكنيسة ، اذا اعتدت طائفة أخرى عليها كانت الثورة الدامية . لذلك تحرص الحكومة على ألا تدع لأسباب الخلاف أن تثور ، وعلى ألا يدخل الكنيسة الا من تريده أن يدخل

ولتبيين لك صورة من هذا الخلاف ، أعود بك الى ذكر نجمة الميلاد .. فهذه النجمة كثيرا ما كانت تنزع من مكانها حين كانت تتقرب طائفة بنجمة أخرى مصنوعة من الذهب أو مرصعة بالماس . وعند ذلك كانت الطوائف تختلف على ملكية النجمة .. لذا وضعت السلطات هذه النجمة من الفضة حتى لا تدعى طائفة ملكيتها

وصورة أخرى لخلاف الطوائف ، بساط ممدود الى جانب أول عماد من عمد الكنيسة ، قائم الى يسارك بعد دخولك من بابها الضيق .. هذا البساط لا يستطيع أحد تقديمه أو تأخيره عن المكان الذي هو به ، أو تلتحم الطوائف التحاما داميا .. فلكل طائفة موضع من البساط أو حوله ، ان تقدمت أو تأخرت عنه مستحقا لطائفة أخرى . وتنظيف البساط وكس ما حوله مقررة فيه حقوق الطوائف ، كالبساط نفسه .. فلا يجوز لطائفة أن تكس التراب من موضع ليس لها ، أو تتهم بأنها تسعى الى حق تغصبه غيرها . وتحافظ الحكومات على حقوق الطوائف محافظة دقيقة ، مخافة ما يجره التفريط فيها أو الاعتداء عليها من نتائج وخيمة الملقبة

مغارة الحليب

تقع مغارة الحليب قريبة من كنيسة المهد .. وهي أكثر سعة من المغارات القائمة تحت الكنيسة المذكورة . وتختلف المغارة في تنسيقها الحالي عن سائر مغارات الكنيسة ، وان تشابهت جميعا في طبيعتها .. ففي أول مغارة الحليب - بعد المدخل - تمثال صغير للعدراء والمسيح ممتطين حمارا يسير بهما الى مصر ، ويسير الى جانبه رجل لعله يوسف النجار وينحدر الانسان الى كنيسة صغيرة ، يخال انها منقورة في الصخر ، وان هبط اليها ضوء النهار من أعلاها . والى جانب الكنيسة الايمن ، صورة كبيرة للعدراء . وهذه الآثار كلها تضيئها الكهرباء مختلف ألوانها ، فتلقى عليها بهاء لا مثيل له في مغارات الكنيسة الكبرى

ليس لمغارة الحليب من القدسية ما لكنيسة المهد بطبيعة الحال .. وليس
فى كنيسة المهد مكان أكثر قدسية من مكان المهد نفسه . وليس يزيد على
كنيسة المهد فى القدسية غير كنيسة القيامة ببيت المقدس



كنيسة القيامة

أشرنا الى معجزة الله في مولد عيسى .. وكنيسة المهد تقوم ببית لحم ، ذكرنا لهذا المولد ولهذه المعجزة .. أما كنيسة القيامة ، فانها تقوم ذكرا للرواية المسيحية عن صلب المسيح وصعوده الى السماء ، وقصة الصلب والصعود معجزة — هى الأخرى — جذيرة بالذكر ، وبأن يقام لها هذا الأثر الفخم الذى يحج اليه المسيحيون من أقطار الأرض جميعها ، والذى كان مثارا للحروب الصليبية التى امتدت على القرون

والاسلام والمسيحية يختلفان في صلب المسيح ، وان أمكن التوفيق بينهما في قصة الصعود . وليس يرجع الخلاف على قصة الصلب الى خلاف على مقدماتها وما سبقها ، ولا الى خلاف على واقعها .. بل يرجع الى وقوع الصلب على شخص المسيح نفسه . أما الصعود ، فقد ورد ذكره في القرآن في غير موضع .. اذ يقول تعالى يخاطب المسيح : « انى متوفيك ورافعك الئى » ويقول : « بل رفعه الله اليه وكان الله عزيزا حكيما »

قصة الصلب

لا يقع الخلاف في قصة الصلب على مقدماتها .. فالمسيح كلمة الله ورسوله ، عند المسلمين وعند المسيحيين .. أرسله الله الى قومه بفلسطين حين حكمتهم روما حكم بطش واستبداد ، وحين فرقت كلمتهم ، وجعلت للأغنياء وذوى المكانة سلطانا على الفقراء ، وعلى الشعب يسومونه سوء العذاب . ولم يكن شعب فلسطين يومئذ ، قد استسلم الى المذلة ورضى حكم الرومان .. بل كانت أسباب الثورة تضرب بها أحشاء البلاد كلها ، وكان الناس هناك يؤمنون بأنهم سيتحررون من نير روما ، بل سيحكمون العالم بدورهم عما قريب

فلما قام المسيح بينهم وجعل يذيع تعاليمه فيهم ، بدأت السلطات تخاف

أثره ، وبدأ الأغنياء وذوو المكنانة ورجال الدين من اليهود يناوئونه .. على أن سخطهم عليه وثورتهم به ، لم يبلغا ذروتها حتى جاء بيت المقدس . أما حين كان يلقي تعاليمه على أتباعه منتقلا من الناصرة الى الجليل الى غيرهما من البلاد ، فيتناقلها الناس ويذيعون بينهم معجزاته .. فقد كان البرم به محصورا في دائرة ضيقة ، فلما دخل بيت المقدس بعد أن ذاعت في الناس معجزاته وتعاليمه ، خشى اليهود مغبة ما يصيبهم اذا استفحل أمره ، وزينوا للحاكم من قبل روما ما جعله يعتقد أن المسيح يضل الناس بما يزعم من احياء الموتى وبراء المرضى واعادة الصواب الى ذى الجنة .. وجيء بعيسى ، وحوكم فحكم عليه بالموت . وكانت عقوبة الاعداء تنفذ بالصلب في مصر وروما وفلسطين ، وغيرها من البلاد المجاورة لها .. وصلب عيسى ، ودقت المسامير الى يديه وساقيه ، فسال دمه .. فافتدى به خطايا الخلق . فلما مات ورفع من فوق الصليب ، أودع قبراً هو الذى تقوم كنيسة القيامة اليوم ذكرا له . وبعد ثلاثة أيام من دفنه ، عاد الى أصحابه حيا ، فأمرهم أن يتفرقوا في الأرض فيذيعوا في الناس تعاليمه . وتفرق الحواريون ، واتبعهم من اتبعهم ، وظلوا يسامون في روما وفي غير روما ألوان العذاب ، حتى لان قلب العاهل الرومانى قسطنطين الى المسيحية فاعتنقها ، وكان أول من أمر ببناء كنيسة المهد وكنيسة القيامة

هذه المامة سريعة عن صلب المسيح ، كما يصور في الأناجيل وفي التواريخ المسيحية . أما الروايات الاسلامية ، فتنفى أنه صلب وان لم تنف ما سبق الصلب . وهى تنفى الصلب بقوله تعالى : « وقولهم انا قتلنا المسيح عيسى بن مريم رسول الله وما قتلوه وما صلبوه ولكن شبّه لهم . وان الذين اختلفوا فيه لفي شك منه . ما لهم به من علم الا اتباع الظن . وما قتلوه يقينا بل رفعه الله اليه وكان الله عزيزا حكيما »

ويقول المؤرخون المسلمون أن اليهود ضاقوا ذرعا بالمسيح ، فشكوه الى الحاكم الرومانى ، فأمر بالقبض عليه .. فلم يعثر به الباحثون عنه ، وانما عثروا برجل يشبهه .. فساقوه الى المحاكمة مربوطا في حبل . وجعل

اليهود يقولون له : « ان كنت تحبى الموتى ، أفلا تخلص نفسك من هذا الجبل ! » ثم يوجهون اليه ألوان الأذى والاساءة .. فلما صلب ومات استوهبه يوسف النجار من الحاكم الرومانى فيللاخوس ودفنه فى قبر كان يوسف أعده لنفسه

ليس المقام هنا مقام تفصيل لصعود عيسى ، أكان بجسده أم بروحه ، وما وقع على ذلك من خلاف ، فنحن انما سقنا ما تقدم تمهيدا للحديث عن كنيسة القيامة التى أقيمت ذكرا لدفن عيسى فى القبر الذى رفع منه الى الله بعد أن توفاه

هيكل لادونيس

سبقنا الى القول حين حديثنا عن كنيسة المهد بيت لحم ، أن قسطنطين بنى المعبد الأول لذكر الميلاد ببيت لحم بعد وفاة عيسى بثلاثمائة سنة ، وانه بنى هذا المعبد فى المكان الذى كان يقوم فيه هيكل لادونيس بناء هادريان .. ومثل ما حدث ببيت لحم لكنيسة المهد ، حدث ببيت المقدس لكنيسة القيامة . فقد بنى هادريان عدة مساجد وثنية أثناء حكمه ، ومن بين هذه المعابد معبد لافروديت أو الزهرة ببيت المقدس . وكان بناء هذا المعبد الوثنى فى سنة ١٣٥ ميلادية .. فلما تولى قسطنطين امبراطورية روما ، واعتنق المسيحية بعد ست سنوات من امبراطوريته ، شن حروبا عدة حالفه النصر فيها ، وكان يعتقد أن الصليب سبب انتصاره . لذلك عول أن يبحث عن مكان صلب المسيح وعن مكان مولده ، واهتدى الباحثون الى أن مكان المولد ، كان حيث يقوم هيكل لادونيس ، وان مكان الصلب كان حيث يقوم هيكل افروديت . أترانا نستنتج من هذا ان هادريان عرف مكان مولد المسيح ، ومكان صلبه ودفنه ، فأقام فيهما هذين الهيكلين ليعفى على آثار المسيحية الناشئة ، أم ان الأمر يرجع الى محض المصادفة ؟.. يقول الباحثون انه محال القطع فى هذا الأمر برأى يستند الى سند علمى

قرر الامبراطور قسطنطين أن يقيم كنيسة حيث صلب المسيح ، ومن حيث صعد الى السماء .. فعهد بالبحث عن مكان الصلب والدفن والصعود الى القس مكاروريوس . وقرر هذا القس أن المكان الذي كلف بالبحث عنه ، يوجد تحت الهيكل الذي أقامه هادريان للزهرة . وأمر الامبراطور فهدم الهيكل ، فوجد قبرا منقورا في الصخر .. وعلى مقربة من هذا القبر الى ناحية الشرق ، وجدت صلبان ثلاثة لوحظ أن أحدها يشفى المرضى .. فلم يبق شك في أنه هو الذي صلب عليه المسيح ، وان القبر المنحوت في الصخر هو الذي دفن فيه بعد صلبه . وأبلغ هذا الاكتشاف الى الامبراطور قسطنطين ، فأمر مكاروريوس أن يقيم عمائر فخمة في هذا المكان المقدس

تقف هنيهة قبل الكلام عن عمارة كنيسة القيامة من ذلك العهد ، فنذكر أن كثيرين أبدوا الريبة في صحة هذا الاكتشاف الذي أعلنه مكاروريوس الى الامبراطور ، وان كتبوا وبحوثا نشرت للتدليل على هذا الرأي . وليس في ابداء هذا الرأي ، ولا في نشر تلك البحوث ، عجب .. وقد نشر مثلها في أمر كثير من الأماكن المقدسة في أديان مختلفة ، ونشر مثلها في أمر كثيرين من العظماء ، ومن يذكر التاريخ أنهم وجهوا العالم في عصرهم وجهة جديدة . فاذا ذكرنا أن مكاروريوس بدأ بحثه عن مكان الصلب ومكان الصعود بعد وفاة المسيح بثلاثة قرون ، وان الحرص على تحديد هذين المكانين كالحرص على تحديد مكان مولده عليه السلام ، كان أقوى في نفسه من الحرص على الأسانيد العلمية في البحث .. التمسنا له ولأمثاله من العذر حسن نيتهم من ناحية ، وشدة توقعهم لقيام معبد يذكر الناس بهذه الأحداث الجليلة في حياة العالم الروحية من الناحية الأخرى

أبلغ مكاروريوس اكتشافه الى الامبراطور قسطنطين ، فأمره الامبراطور أن يقيم عمائر فخمة ذكرا لصلب المسيح وصعوده . وشيدت يومئذ

كنيستان .. احدهما فوق القبر ، والأخرى حيث وجدت الصلبان الثلاثة .. وكانت هذه الثانية أكبر وأفخم . وبين الكنيستين ، قام مرتفع قيل انه مرتفع الجلجثة .. وسويت الأرض المحيطة بالكنيستين وأحيطت بالأبواب والعمد وكانت كنيسة القبر ، كما بنيت في ذلك العهد ، مستديرة قامت فوقها قبة جميلة . أما كنيسة الفداء أو كنيسة الصلب ، فكانت مستطيلة شيدت فوقها قبة هي الأخرى ، وأقيم الصليب الذى قيل أن المسيح افتدى عليه خطايا الخلق في المرتفع القائم بين الكنيستين



تم بناء الكنيستين سنة ٣٣٦ للميلاد ، وظلتا قائمتين الى سنة ٦١٤ ، اذ أصابهما الفرس بتلف جسيم ، ونقلوا الصليب الأعظم الى بلادهم . وذلك حين دخلوا بيت المقدس في حكم كسرى .. على أن هذا الحكم لم يطل عهده . فقد انتصر هرقل على الفرس في سنة ٦٢٥ ، فأصلح عامله على بيت المقدس ما تلف من الكنيستين استعدادا لدخول هرقل المدينة المقدسة وورده الصليب الأعظم الى مكانه

ودخل العرب فلسطين في عهد أبى بكر الصديق ، ثم فتحوا بيت المقدس في عهد عمر بن الخطاب .. فلم يتعرضوا للمعابد المسيحية بأذى ، وبقيت كنائس بيت المقدس في عزها وكرامتها

أفكانت الكنيستان قائمتين حين فتح عمر بيت المقدس ، أم انهما كانتا أدمجتا في كنيسة واحدة . ليس من اليسير القطع في الأمر برأى .. فمنذ القرن الثامن الميلادى ، لم يذكر أحد ممن حجوا بيت المقدس كنيسة الصليب .. وانما كانوا يذكرون جميعا كنيسة القيامة ، أترى هدمت كنيسة الصليب قبل الفتح العربى أو بعده بقليل ، أم أن كنيسة القيامة أصبحت ذات مكانة خاصة أنست الحجيج من المسيحيين الكنيسة الأخرى .. لست أبدى في الأمر رأيا



وفي أوائل القرن الحادى عشر ، أمر الخليفة الفاطمى الحاكم بأمر الله ،

فهدمت كنيسة القيامة حتى لم يبق منها الا أطلال.. لكن ما أصاب الكنيسة المسيحية المقدسة من هذا الشر لم يدم طويلا ، فقد استولى الصليبيون على بيت المقدس في أواخر ذلك القرن الحادى عشر ، وأعادوا بناء الكنيسة على نحو من الفخامة ووسعوا رقعتها .. ثم جعل المسيحيون من بعدهم يضيفون اليها على الأجلال ، حتى صارت الى ما هى عليه اليوم من فسحة وفخامة وجلال

أكثر المواضع قدسية فى كنيسة القيامة ، موضع القبر الذى دفن فيه السيد المسيح بين وفاته وصعوده .. وهو يقع الى يسار الداخل الى الكنيسة ، بعد خطوات من بابها . وقد بولغ فى تجميل عمارته ، وفى تزيينه وترصيعه ، مبالغة تدعونا لنذكر بساطة المسيح فى حياته .. ولنعجب كيف تؤدى هذه البساطة الى كل تلك الزينة ، والى هذا التألق الفنى فى نحت القبر من أبداع الرخام ، وفى اضاءته على نحو لم يدر بخاطر صاحب القبر، ولا بخاطر أحد من حواريه .. ولكن ، فيم العجب وليست كنيسة القديس بطرس بروما دون كنيسة القيامة جلالا وبهاء وروعة .. وفيم العجب والمسجد النبوى بالمدينة لايتفق جمال عمارته فى شىء مع بساطته ، يوم شاده النبى من اللبن ، وجعل سقفه وعمده من جذوع النخل ؟



وكنيسة القيامة ، فيما وراء قبر السيد المسيح ، مضرب للمثل فى الفخامة والمهابة والجلال ، وليست مبالغة المسيحيين فى اكبارها وتعظيم عمارتها ، مما يوجب أية دهشة . ولا يرجع ذلك الى مكاتها المقدسة من نفوسهم فحسب .. بل يرجع كذلك الى ما احتملوه خلال الحروب الصليبية من نضحيات جسام ، جعلتهم يودعون فيها ذكر هذه التضحيات التى بذلت ذداء للعقيدة ، كما ضحى المسيح بنفسه - فى اعتقادهم - ليفتدى بدمه خطايا الناس جميعا

تمتاز كنيسة القيامة على غيرها من الكنائس بأنها لا تقتصر على الفناء والمذبح والهيكل ، بل لقد أقيم بجوارها بناء متصل بها يرتفع سطحه عن

سطحها . ويذكر بعض القائمين بشئونها ، انه أقيم حيث المرتفع الذى صلب عليه السيد المسيح ، والذى كان يصلب عليه من حكم عليهم فى عهده . وهذه الرواية موضع ريبة فى نظر كثيرين من المسيحيين الذين يؤمنون ببيت المقدس ، ويحاولون تحقيق مواضع الأماكن المقدسة فيها تحقيقا علميا .. فهؤلاء لا يذهبون مذهب من يرتاب فى صحة مكان القبر .. ولكنهم يقطعون بأن هذا البناء المرتفع المتصل بالكنيسة ، لا يذكر مكان الصلب فى كثير ولا فى قليل

وتقع الى جوار الكنيسة ، كنيسة أخرى صغيرة حفظت بها بعض آثار تنسب الى عهد المسيح والحواريين . وباب هذه الكنيسة يفتح الى الفضاء الواقع أمام باب القيامة . وليس شئ من الآثار المحفوظة بهذه الكنيسة الصغيرة ، ثابت النسب ثبوتا تاريخيا ذا قيمة . وما يرويه سدة الكنيسة من ذلك ، لا يعدو أن يكون من نوع القصص الذى يرويه سدة كل معبد ، يجذبون به قلوب المؤمنين ممن من الله عليهم بايمان العجائز ، أو بايمان كايماهم



هذان الأثران المسيحيان اللذان ذكرتهما — كنيسة القيامة وكنيسة المهد — هما اللذان يضارعان ما تحدثت عنه من الآثار الاسلامية بالحجاز وفلسطين فى فن العمارة .. وكما أن بالحجاز أماكن اسلامية لها من القدسية ما يستهوى اليها قلوب المسلمين الذين يؤدون فريضة الحج ، فان بفلسطين وحول بيت المقدس نفسها أماكن لها فى قلوب المسيحيين قدسية كبرى .. وحسبى أن أشير من هذه الأماكن المتصلة ببيت المقدس الى جبل الزيتون وطريق الآلام .. على اننى لا أريد الوقوف عند هذه الأماكن المسيحية أو تلك الأماكن الاسلامية ، لأننى كما ذكرت من قبل انما وقفت عند الأماكن التى نالت بحكم قدسيتها من العناية الخاصة ، ما سنفسره فى الفصل الأخير عن الأماكن المقدسة فى الشرق الأوسط ، لنستشف منه الدوافع التى حركت الوجدان الانسانى للعناية بتلك الأماكن المقدسة

لكنى أحرص قبل الحديث عن هذه الدوافع ، على أن أتحدث عن حائط
المبكى . فهو المكان المقدس لليهود فى أرض المعاد .. واليهودية هى أولى
الاديان السماوية الثلاثة التى نزلت بالشرق الأوسط . صحيح ان حائط
المبكى لم يعمره اليهود .. وما كان لهم أن يعمره . لكنه يحدث عن معنى
له من القدسية فى نفوسهم ما للأماكن المقدسة التى تحدثنا عنها فى نفوس
المسلمين ، وفى نفوس النصارى



- ٣ -

مبكى اليرود

- * صورة الحذاء
- * الشعب المختار
- * حضارة اسرائيل
- * السيد المسيح
- * هدم الهيكل

مبكي اليهود

ألف الناس من أهل بيت المقدس ، منظرا تقع عليه أعينهم بعد ظهر الجمعة وصبح السبت من كل أسبوع على مدار السنة .. منظر فذ لا مثيل له في العالم كله ، وهو لذلك مثار طلعة الغريب النازل بيت المقدس حاجا أو سائحا . ففى هذين الموعدين من كل أسبوع ، تكتظ شوارع المدينة وطرقها بعدد عظيم من الرجال والنساء والأطفال .. لبسوا أجمل ثيابهم على اختلاف صورها وألوانها .. فمنهم لابس القفطان والقبعة ، ومنهم لابس النسروال والعمامة السوداء . والنساء فى أزياهن المتباينة ، قد لبسن أفخر ما عندهن .. فقيرات كن أو ثريات ، وألبسن أطفالهن أجمل ثيابهم . ويتأبط كل من هؤلاء كتابا من كتب العبادة ، ويتوجهون جميعا وجهة واحدة .. يتوجهون الى ناحية حائط المبكى .. فأولئك هم اليهود ، ذاهبون ليكون فاذا اتبعتهم فى طرق البلد المقدس ، بلغت معهم ذلك الحائط الغربى الباقى من الهيكل المقدس .. ثم رأيتهم وقفوا جميعا أمامه ، يقبل بعضهم أحجاره ويتمسح بعضهم بها تبركا وطلبا للمثوبة . فاذا حان موعد البكاء ، رأيت ربانيهم وقف على رأسهم يحدوهم ويحيونهم . وقد صور غير واحد من السائحين الذين شهدوا هذا المنظر المثير للشجن ، صورة هؤلاء الباكين تسيل دموعهم على خدودهم ، وتخنق العبرات بعضهم حتى يكاد يغص بها .. وذكر هؤلاء السائحون حداء الربانى وجواب شعب اسرائيل .. هذا الحداء وهذا الجواب اللذان لم يتغيرا من تسعة عشر قرنا ، واللذان لا يزالان يترددان كل أسبوع فى أجواء بيت المقدس الى وقتنا الحاضر

صورة الحداء

وجدير بنا أن نروى صورة هذا الحداء وهذا الجواب للذين لم يقفوا من بعد عليهما ، ليروا صورة من آلام شعب اسرائيل وآماله . وننبه قبل أن نبدأ الرواية الى أن جواب الشعب لايزيد فى بدء النظر على هذه

الكلمات : « نجلس في عزلتنا وثنوح » .. أما ما سوى هذه العبارة ،
 فحداء الربانى .. والمنظر يجرى كما يأتى :
 الربانى : من أجل القصر الذى هجر ..
 الشعب : نجلس في عزلتنا وثنوح ..
 — من أجل الجدران التى هدمت ..
 — نجلس في عزلتنا وثنوح ..
 — من أجل مجدنا الذى ذهب ..
 — نجلس في عزلتنا وثنوح ..
 — من أجل الهيكل الذى صار أطلالا ..
 — نجلس في عزلتنا وثنوح ..
 — من أجل عظمائنا الذين ماتوا ..
 — نجلس في عزلتنا وثنوح ..
 — من أجل رهباننا الذين قتلوا ..
 — نجلس في عزلتنا وثنوح ..
 — من أجل ملوكنا الذين امتهنوا ..
 — نجلس في عزلتنا وثنوح ..

وقد ينقلب الحداء والجواب ، فى بعض هذه الاجتماعات ، الى دعاء
 يتبادله الربانى والشعب على النحو الآتى :
 الربانى : نبتهل اليك أن ترحم صهيون ..
 الشعب : وأن تجمع أبناء بيت المقدس فى صعيد واحد ..
 الربانى : أعجلنا بالخير يا منقذ صهيون ..
 الشعب : وتحدث الى قلب بيت المقدس ..
 الربانى : ولتعد مملكة صهيون عما قريب ..
 الشعب : رطب قلوب الذين ينوحون على بيت المقدس ..
 قد يختلف الحداء والجواب ، وقد تختلف الأدعية فى صورتها عما تقدم .

لكنها جميعا تدور حول هذه المعانى ، وتعبر عن هذه الآلام والآمال .
 أليست هى آلام كل يهودى منذ غلبهم الرومان ، وأدالوا دولتهم وهدموا
 هيكلهم .. ثم شنتوهم فى الأرض ، فصاروا لا يعرفون لهم الى اليوم وطنا
 ولا مستقرا . وهم يحاولون بكل الوسائل ، يرجون أن تعود لهم الدولة
 فى أرض المعاد .. وهذا النوح ، وهذا الدعاء وهذا الاستغفار ، وهذا
 التوسل للبارىء جل وعلا .. بعض تلك الوسائل ، وان كنا لا ندرى بأى
 قدر يتعلق بهذه الوسيلة أملهم فى عالمنا الحاضر

وهذا الحائط الغربى الذى ينحون عنده ، لايزيد عن انه بقية من
 جدران الحرم الذى أقامه سليمان لهيكل بيت المقدس .. هذا الحرم الذى
 بنيت كنيسة القيامة فوق جانب منه ، وبنى المسجد الأقصى فوق جانب
 آخر ، وبنيت قبة الصخرة فى المكان الذى كان يقوم قدس الهيكل عليه ..
 هذه البقية الباقية من هيكل سليمان ، هى الأثر الذى يحدث شعب
 اسرائيل عن ذلك المسجد الغابر ، الأثر المحطم اليوم ، والذى كان شامخا
 رفيع العماد فى عهد مضى حين عز اليهودية وعظمة بنى اسرائيل . وهذا
 الأثر هو الذى يريد بنو اسرائيل أن يعيدوا اليه مجده ، ويلتمسون لذلك
 كل الوسائل

وأنت تستطيع أن تقدر حزن هؤلاء الفاتحين ومبلغ عمقه ، حين تذكر
 المجد الغابر الذى كان لهم ، والذلة التى ضربت منذ عشرين قرنا عليهم ..
 فبنو اسرائيل هم سلالة ابراهيم واسحق ويعقوب .. وهم الذين أرسل
 الله اليهم موسى بكلمة التوحيد ، يوم كانت الوثنية هى الدين القائم فى
 الأمم المحيطة بهم ..

الشعب المختار

كان فرعون يقول لأهل مصر : « أنا ربكم الأعلى » وكان المصريون
 يرون الطبيعة آلهة ، فيخلعون مجالى الالهية على كل مظاهرها ..

فالشمس اله ، والسماء اله ، والأرض اله ، والليل اله . وكانت وثنية اليونان ما تزال في بدائيتها ، وكانت آلهتها تتطور الى مظاهر الطبيعة . كذلك ، لتصبح أبولون ، وفينوس ، وسكان الاولمب جميعا . وكانت مجوسية الفرس ترى في النار والنور مصدر الحياة ، وتخصصها لذلك .. بالألوهية ..

في هذا العالم الوثني الذي لم يتخط الشعور فيه آثار الحس المباشر ، سما بنو اسرائيل الى مراتب التجريد وألهموا سر الوجود ، وهداهم خالق الكون الى وحدانيته وصمدانيته وبذلك كانوا شعبه المختار ..

وفي هذا العالم الذي كانت المعابد تقوم فيه .. يذكر فيها آمون رع بمصر ، ويذكر أبولون باليونان ، وتذكر فيها نار المجوس بفارس . ذهب ابراهيم موغلا في الصحراء حتى بلغ مكة ، فوضع فيها القواعد لأول بيت رفع للناس يذكر فيه اسم الله وحده لاشريك له ..

في هذه الفلاة الموحشة ، أقام ابراهيم واسماعيل قواعد البيت بعيدا عن غزو الغزاة وعبث الطامعين .. فلما قويت شوكة اسرائيل ، بعث الله كلمه موسى ، فسار بمن كان منهم بمصر الى وطن اسرائيل بكنعان من أرض فلسطين ، داعيا الى عبادة الله وحده ، ونبذ ما يدعو المصريون واليونان والفرس اليه من عبادة مظاهر الطبيعة .. فالطبيعة ومظاهرها ليست الا بعض ما خلقه الله جل شأنه وتعالى أسماؤه

ولقى موسى وأهله عنتا من فرعون وقومه . وكانت فلسطين خاضعة يومئذ لحكم مصر ، فاستقلت من بعد .. وتولى أمرها داود ، ثم ابنه سليمان .. فأقام داود النواة الأولى للهيكل المقدس ، وأقام سليمان الهيكل كله في بهائه وفخامته وجلاله .. أقيم هذا الهيكل يذكر فيه اسم الله وحده لا شريك له ، وأقيم في فخامة تضارع فخامة المعابد المصرية التي تؤله فيها مظاهر الطبيعة ..

حضارة اسرائيل

وآن لبنى اسرائيل أن يقيموا حضارة ، وأن يذكروا فى الأرض اسم الله وحكمه وتاريخه . بذلك أثاروا عليهم ثائرة الفراعنة وثائرة الفرس .. وغزا الفراعنة فلسطين ، فوجدوا فى دين موسى من أثر عباداتهم ما صدهم عن محاربة هذا الدين وعن التعرض لهيكله الأقدس . وغزا الفرس فلسطين من بعد ذلك .. فاذا دين اسرائيل ينكر دينهم ويتجافى عنه .. لهذا أحرقوا هيكل سليمان ، وتركوه يبابا

على أن الهيكل أقيم بعد هذه الغزوات التى قام بها يتخذ نصر .. أقيم بادئ الأمر على صورة دون صورته الأولى جلالا وفخامة .. لكن بناءه أعيد حين تولى هيرودس الأول حكم فلسطين باسم روما ، وأعيد أفخم مما كان فى أبهى عصوره وأكثرها عزا وأسماءها مكانة



تقلبت اسرائيل ، بحكم هذه الأحداث التى تعاقبت على القرون ، بين عزة الجاه العريض ، ومضطرب الثورة على الحكام الذين غزوها ، والعمل على دفع الغزاة عن أرضهم واستعادة سلطانهم عليها ودولتهم فيها .. لكنهم أبوا خلال هذه الأحداث جميعا أن ينشروا بين الناس عقيدتهم ، أو يذيعوا كلمة التوحيد فى غير شعبهم ، حرصا منهم على أن يظلوا شعب الله المختار .. أو سموا بفكرتهم على أن يتناولها أولئك الذين يعبدون من دون الله بعض ما خلق الله .. لذلك ظلت اليهودية مقصورة عليهم لا تتعدى حدودهم ، ثم اندس اليها من عوامل الانحلال الروحى ما يترتب حتما على الانحلال الاجتماعى الذى يجره الاستعمار فى ذيله . لذلك انصرف شعب اسرائيل عن المعانى الروحية السامية الى هذه الحياة الدنيا ، وان بقى من أحباره ورهبانه من أقاموا على حكم التوراة ، ومن احتفظوا بسميزات هذا الشعب .. سميزات المثابرة ، ودقة المنطق ، وصفاء الذهن



كان انصراف بنى اسرائيل عن شرعة التوراة فى أسمى معانيها ، يدعو

بعض هؤلاء الأحيار والرهبان ليتوقعوا قيام نبي من قومهم يبعثه الله ،
 ليعيد اليهم مجدهم ويرد السلطان لدولتهم. وكانت الامبراطورية الرومانية
 اذ ذاك ، قد عظم أمرها في أوروبا ، وآن لها أن تستقر على ضفاف بحر
 الروم من ناحية الشرق .. بعد أن كانت يدها تمتد اليه ، ثم تنقبض عنه
 وتم ذلك حين غزا بومبي فلسطين في السنة الثالثة والستين قبل الميلاد ..
 لقد قاومت بيت المقدس ، وقاومت حصون الهيكل المقدس ، جيوش
 الروم مقاومة عنيفة . لكن هذه الجيوش انتهت الى التغلب عليها ، وقرار
 حكم الامبراطورية في ربوعها .. على أن الروم لم يتعرضوا يومئذ للهيكل ،
 ولم يحاولوا ذلك قواعده . بل تركوه قائما واستأنموا أهله الذين أعلنوا
 الخضوع والطاعة ، ورضوا أن تستقر روما في أرض اسرائيل

السيد المسيح

لم ينقض القرن على غزو بومبي أرض فلسطين ، حتى أذن الله للسيد
 المسيح ، فقام يدعو قومه من بنى اسرائيل ليعودوا الى الله وليدخلوا على
 ملكوته . وكانت دعوته بطبيعتها ثورة على انحراف اليهودية عن شرعة
 التوراة .. كما كانت ثورة على الغزاة الظالمين . وقد لقيت هذه الدعوة
 مقاومة من بنى قومه ، ومن الحاكم باسم روما . وبلغت هذه المقاومة شدة
 العنف حين دخل المسيح بيت المقدس ..

لكن الله كان قد أتم يومئذ كلمته على لسان عيسى ، وكان قد أعد
 حواريه ليذيعوا هذه الكلمة في الأرض ، لا يحتفظون بها لأنفسهم كما
 فعل أسلافهم من قبل . فلما توفي الله عيسى ورفعته اليه ، خيل لقومه من
 بنى اسرائيل أنهم قد آن لهم أن يطمئنوا الى عقائدهم .. لكن بذور
 الثورة التى بثتها كلمة عيسى فى الناس ، دفعت بنى اسرائيل أنفسهم
 ليتنقضوا على حكم روما وليثوروا بها



وبلغ الانتفاض أوجه ، بعد أربعين سنة من وفاة عيسى .. عند ذلك ذهب

تيطس فسبازيان من روما الى فلسطين ، وأقسم ليخضعن بنى اسرائيل .
وليضربنهم بيد من حديد . وقاومت فلسطين جيوشه مقاومة عنيفة .. يقول .
جوريفومل مؤرخ ذلك العصر ، وكان يعيش فيه : « الآن ولم يبق أمل
فى الخلاص ، فذلك أوان القتال حتى الموت .. فمن الشجاعة أن يقدم
الانسان المجد على الحياة ، وأن ينهض الى عمل نبيل تذكره الأجيال من
بعده »

قال المؤرخ هذه الكلمة البالغة فى سموها ، يوم كان أنين شعب
اسرائيل ، لمظالم الرومان وقسوتهم ، قد بلغ غاية مداه .. لكن جيوش
روما التى ألقت الظفر لم تصدها المقاومة ، بل سارت من مدينة الى مدينة .
تقتل الناس وتحرق البلاد وتشيع فى الأرض الفساد .. فلم يكن لصدها
سبيل . وحاصر الروم بيت المقدس ، فقاومتهم وطالت مقاومتها حتى نفشى
بين أهلها المرض بسبب الجوع .. ثم أسلمت مفاتيحها الى الفاتحين ..

هدم الهيكل

دخلت جيوش روما بيت المقدس ، فهدمت الهيكل وأعملت السيف فى .
رقاب أهلها ، وأسرت من بنى اسرائيل كل من لم يمت وأجلتهم عن المدينة ..
بل أجلتهم عن فلسطين كلها ، فتشتتوا فى البلاد المجاورة ..
ذهب منهم من ذهب الى العراق ، وانحدر منهم من انحدر الى شبه
جزيرة العرب ، وعاد منهم من عاد الى مصر ... وانحل عنهم ذلك السلطان
الذى كانوا يعتزون به ، وأصبحوا لا يعرفون لهم وطنا ولا مستقرا



أجلاهم المسلمون عن شبه جزيرة العرب فى العهد الأول للدين الحنيف ،
بعد منازعات وحروب بين هؤلاء وأولئك .. ونظر اليهم المسيحيون فى
مختلف بقاع الأرض ، نظرة متأثرة بما كان بين اليهود والمسيح .. مما انتهى
الى قصة الصلب فى كتب المسيحية المقدسة . وأبى عليهم الناس جميعا أن
يستقروا فى بقعة من الأرض تكون وطنا لهم .. ذلك شأنهم منذ ألف

وتسعمائة سنة .. وذلك شأنهم الى يومنا الحاضر وبنو اسرائيل خلال هذه المحن ، لا يزال حنينهم الى ارض المعاد كحنين أجدادهم الأولين .. ولا يزال رجاؤهم متصلا في أن تعود اليهم دولتهم ، وأن يكونوا في الأرض الحاكمين

من أجل هذا الذي أصابهم ، يبكى اليهود وينوحون .. ومن أجله يذهب المقيمون منهم بيت المقدس بعد الظهر من يوم الجمعة ، أو صبح السبت ، كل أسبوع .. على مدار السنة ، حتى اذا بلغوا بقية جدار الهيكل ، وقف ربانهم على رأسهم يذكر ما أصابهم من هدم هيكلهم ، وقتل رهبانهم وذهاب ملكهم .. فتسيل لذلك دموعهم ، ويهوى الحزن بقلوبهم الى قرار سحيق ، ثم يضرعون الى الله أن تعود دولتهم ليكونوا في الأرض الحاكمين (١)



(١) سبق ان اشرنا الى ان هذه الفصول كتبت في حوالى عام ١٩٤٢ أى قبل احتلال الاسرائيليين لفلسطين سنة ١٩٤٨

- ٤ -

الأماكن المقدسة لما دالم تحفظ ببساطتها

- * بساطة الأماكن المقدسة
- * جمال البناء والفن الذي انتقلت إليه
- * نظرة المفكرين للتجديد

بساطة الأماكن المقدسة

سبق أن أشرت الى أن الفكرة التي أوجت بإقامة الأماكن المقدسة ، تستمد وجودها من الأديان السماوية الثلاثة التي نزلت بهذا الشرق الأوسط : اليهودية ، والمسيحية ، والاسلام .. وأن مصدر هذه الفكرة هو الالتجاء الروحي الى مكان بذاته ، يعتبر في نظر الذين يحجونه مؤثلا لأرواحهم ، وملاذا لقلوبهم المتعطشة الى التطهر .. ترجوه حيثما تكون من بقاع الأرض ، ثم لا تطمئن الى أنها أدركت حظها منه حتى تحج هذا المكان ..

فاذا أنتم هؤلاء حجهم ، آمنوا بأن الله قبل توبتهم .. وحط عنهم أوزارهم وذنوبهم ، لقاء ما توجهوا اليه منيين مخلصين ، وما سعت نفوسهم حين الحج الى ذرى المعاني الروحية والواقع أن الصادقين في حجهم ، من أهل هذه الأديان ، يخالج وجدانهم حين الحج شعور فياض بمعان تسمو كل السمو على ما ألفوا فيما سبق من حياتهم ..

هذه المعاني تختلف باختلاف منازع الناس ، ومبلغ ثقافتهم ، وألوان تفكيرهم .. تختلف عند الرجل الساذج عنها عند الرجل الذي ألف التفكير ، ثم شعر كما شعر ذلك الساذج ، بمكان الحج يدعو اليه ليظهر عنده .. لكنها عند الرجلين سمو بالنفس الى ما فوق نفسها ، وحرص على الاتصال بالملأ الأعلى من ملكوت الله ، ورجاء في وجهه الأكرم أن ييسر هذا الاتصال ، لنكون في غدنا خيرا مما كنا في أمسنا .. فنبلغ بذلك مكان النفس مطمئنة .. ترجع الى ربها راضية مرضية ، تدخل في عبادته وتدخل جنته .

وقد رأينا كيف كانت هذه الأماكن أول أمرها بسيطة كل البساطة ، وكيف تطور أمرها على تعاقب القرون .. فبلغت من الفخامة والمهابة

والجلال أعظم مبلغ ..

وهذه ظاهرة نراها في الأماكن المقدسة في أنحاء الأرض جميعا ، بل نراها ظاهرة في أماكن العبادة كلها في الأديان المختلفة .. تبدأ هذه الأماكن بسيطة ، ثم تتدرج شيئا فشيئا الى الفخامة .. وذلك أمرها بنوع خاص حين تقام ذكرا لأمر تاريخي جسيم الخطر ما سبب هذا ؟ ..

لم لا يحتفظ الناس لهذه الأماكن المقدسة ببساطتها الأولى لينعموا بما البساطة من روعة ومهابة ؟ .. السبب واضح .. فالفكرة التي أقامت هذه الأماكن فكرة خالدة ، ولذلك تبقى جديدة أمام كل جيل جديد ..

طبيعي ان يلتبس الناس لذكر الفكرة الخالدة مظهرا يبقى على الدهر أطول زمن ، يستطيع الانسان أن يضمن بقاءه عليه هذا هو السر في تشييد المصريين القدماء الاهرام والمعابد التي لا تزال باقية تشهدها أعيننا رغم مر السنين وكر القرون .. انهم شادوها رمزا لمعان باقية ، فيجب ان يكون لها من حظ البقاء ما لهذه المعاني ..

وقد بقيت آثار القدماء المصريين عمرا أطول من عمر المعاني التي قامت تخلفها .. فحق ان تبقى الأماكن المقدسة عمرا يوازي عمر هذه المعاني الجليلة التي شادتها ، والتي لا يجيء عليها الزمان ..

فاذا عجز الانسان عن ان يقيم هذه الأماكن للخلود ، فليقمها لتعمر على القرون ، ما استطاع علمه وفنه ، أن يحفظها خالدة على القرون

تري لو أن مسجد النبي العربي بالمدينة ، بقيت عمارته كما شاده عليه السلام .. أفكان مقدرا له أن يبقى على وجه الزمان ، أم أنه كان يعرض لأعاصير الحدثان مما شهدته الايام وما لا تزال تشهده أعيننا ؟ ..

لذلك قوى عثمان بن عفان عمارته كما رأينا ، وان لم يفكر في زينته كما فكر عبد الملك بن مروان ، وكما فكر المسلمون على القرون التي تعاقبت من بعده ..

وما يقال عن مسجد النبي بالمدينة ، يصدق على غيره من الأماكن التي شيدت لتخلد فكرة عظيمة .. بدأت كلها بسيطة بساطة الفكرة التي دعت الى اقامتها . وأكثر الأفكار قوة أكثرها وضوحا وأكثرها لذلك بساطة .. لذلك تنغرس في نفوس الناس وتستولى عليهم .. فيزدادون شعورا بقوتها ، فيزيدهم ذلك حرصا على تقوية الأثر الذي يذكرها ولما كانت الفكرة تتصل دائما برجل ألهمها أو أوحى اليه بها ، فذكر هذا الرجل يتصل بذكر الفكرة العظيمة التي تنسب اليه ، من ثم ، تقام للمعظم آثار كالأثار التي تقام لفكرته ..

أشرنا الى مسجد النبي العربي .. هذا المسجد الذي أقامه النبي بسيطا ، فجعله المسلمون من بعده مثال المتانة والجلال والجمال .. كذلك الشأن في كنيسة المهد ، وكنيسة القيامة .. هما يقومان ذكرا للمسيح عليه السلام يوم ولد ، ويوم توفاه الله ورفعاه اليه .. وهما لذلك آية في المتانة والروعة

هذه الآثار التي تقام للعظماء ، تضارع الآثار التي تقام تخليدا للفكرة التي جاءوا بها .. فبيت الله الحرام بمكة ، والمسجد الأقصى ببيت المقدس ، يقومان ذكرا لفكرة التوحيد من يوم هدى الله أنبياءه ورسله اليه ، وألقى عليهم أن يبلغوا الناس فكرته ..

فهذان الأثران المقدسان تضارعهما الآثار التي أقيمت لمن هدوا الانسانية الى فكرة التوحيد قوة وجلالا وعظمة

لا يكتفى الناس بتقوية الأماكن المقدسة لتقاوم الزمان وأحداثه .. بل هم يصفون عليها من ألوان البهاء والجمال والجلال غاية ما يهديهم اليه عملهم وفنهم .. لماذا ؟ ..

لأن الفكرة العظيمة لها على بساطتها من البهاء والجمال والجلال ، ما يبهر القلب ويأخذ بمجامع القلب

الصورة المادية للمعاني المجردة

بهاء الفكرة معنوى ، وجلالها روحى ..
وبهاء الأماكن التى تذكرها ، وجلال هذه الأماكن وجمالها مادى ..
فكيف يقاس المادى بالمعنوى ؟ ..
لك أن تسأل هذا السؤال .. وجوابنا عليه أن من طبيعة الانسان أن
يخلع الصورة المادية على المعانى المجردة ، لأن الانسان قلما يدرك المعنى
المجرد الا أن تقوم له فى نفسه صورة مادية .
فاذا استطاع المفكرون أن يجردوا المعانى ، وأن يدركوها لذاتها ، وأن
تتمثل أمامهم حقائق لها صورتها الواضحة كوضوح الصورة المادية فى نظر
سواد الناس .. فان هذا السواد لا سبيل له الى امتثال الصورة المعنوية
أو الروحية الا أن يقيم لها فى أطواء نفسه صورة مادية
لما فتح رسول الله مكة ودخل الكعبة ، رأى جدرانها صورت عليها
الملائكة نساء ذوات جمال . فأنكر هذه الصور لأن الملائكة ليسوا ذكورا
ولا اناثا ، وليس لهم فى النفس التى تدرك المعانى المجردة صورة مادية ..
لذلك أمر النبى فطمست هذه الصور ..
على أن للذين صوروها عذرهم الذى سبق بيانه .. فالصورة المجردة
لا يمكن أن تثبت فى نفس السواد قائمة بذاتها بل لابد لها من جسد
تستقر فيه لتحيا به فى تصورهم كحياة الروح فى الجسم
ولقد رأينا المصورين الأوربيين فى القرن الخامس عشر والقرن السادس
عشر يصورون الملائكة على نحو يقرب مما كان على جدران الكعبة .. ولا
يزال هذا شأن أهل الفن الى يومنا .. ذلك بأن الصورة المجردة لا يمكن
أن تثبت أمام حواسنا الا اذا اتخذت الصورة المادية لباسا لها تستقر عليه
الحواس
ودليل أكثر وضوحا على أن السواد لا يستطيع تمثيل الصورة المعنوية

إلا في صورة مادية ، عبادة الأصنام .. فهذه الأصنام كانت تعبد عند العرب ، وعند غير العرب ، على أنها صورة للاله على ما كان يتصورها أهل تلك العصور

وليس بين المعانى التى تقوم بالنفس ما يسمو على كل صورة مادية كمعنى الألوهية السامى . مع ذلك عجز السواد فى الماضى عن تصور هذا المعنى مجردا من المحسوسات المادية ، فاتخذوا من الفن وسيلتهم الى تمليق هذا العجز فى نفوسهم دون الاعتراف به صراحة وجهرا لهذا يظنى الناس على الأماكن المقدسة أروع صور الفن وأبدعها وأجملها ..

ولهذا أوحى المعانى الدينية الى الفن ، وألهمت أربابه خير ما خلفوا للانسانية من تراثهم البارع ولقد رأيت الشئ الكثير من هذا الفن حين تحدثنا عن مسجد النبى وقبة الصخرة ، وعن كنيسة المهد وكنيسة القيامة ..

وأنت ترى منه الشئ الكثير فى المساجد والكنائس حيثما ذهبت من أنحاء العالم .. ترى فن العمارة بالغاً غاية عظمته وجلاله ، وترى سائر الفنون متجلية فى التماثيل والصور فى الكنائس وفى السجاجيد والخط الجميل فى المساجد ..

ذلك لأن الفكرة العظيمة التى أقامت هذه المعابد الفخمة ، حركت الوجدان الانسانى للعناية بها عناية تتفق مع جلال هذه الفكرة وعظمتها

نظرة المفكرين للتجسيد المادى

ذكرت أن المفكرين قديرون على تصور الفكرة المجردة لذاتها ، وانها تتمثل لبصائرهم فى صورة واضحة كوضوح الصورة المادية فى نظر سواد الناس ، وهم يسمون بالفكرة عن أن تلبس اللباس المادى سموا كبيرا ، بل هم يرون فى اللباس هذا اللباس حدا منها وتضييقا لآفاقها ، يصلان فى كثير من الأحيان الى افسادها ..

فكيف يرضون عن النزول بها في الأماكن المقدسة ، وفي غير الأماكن المقدسة الى أن تصور صورة مادية ؟

وكيف يسكتون على ذلك ولا يحاربونه ؟

ثم كيف يحض الحاكمون وأولو الأمر عليه ويشجعونه ؟

لم لا يصنع المفكرون ما صنع النبي العربي حين طمس الصور التي كانت على جدران الكعبة ، وحين حطم الأصنام القائمة فيها ؟
لا أرانى بحاجة الى القول بأن السمو الى مقام الرسالة أمر غير ميسور،
الا لمن اختارهم الله لها ..

وأزيد على ذلك ، ان أولى الأمر ليسوا دائما من المفكرين الذين يسمو تفكيرهم الى مقام التجريد وتمثل الفكرة في حيويتها الذاتية غير كاسية ثوب المادة ..

وسيان منهم من سموا الى هذا المقام ومن لم يسموا اليه .. هم جميعا ينظرون الى أمور الحكم بعين الواقع لا بعين التجريد والبصيرة المطلقة من قيود هذا الواقع ..

وهم يقدررون أن الرسول النبي العربي قد غفى على ما وجد بالكعبة من الآثار حتى لا يبقى لعبادة الأصنام في النفوس أثر

أما وقد بلغ الأمر من ذلك مداه ، ولم تبق لهذه العبادة في النفوس باقية ، فلتكن معانى الحكم قريبة من متناول ادراك السواد حتى يطمئن الناس الى هذا الحكم ويرضوا عنه . ومن أسباب الرضا أن تقرب الى أذهانهم المعانى النفسية في صور مادية . ولذا أنفق عبد الملك بن مروان وغيره من الملوك والأمراء ، وبالعوا في الاتفاق على عمارة الأماكن المقدسة ، حتى يصل بها الفن الى أبهى صور الجمال والجلال

أما المفكرون ، فلا يحاربون هذا التجسيد المادى للمعانى الذهنية والروحية ، لأنهم يرونه ظاهرة من ظواهر الحياة الانسانية لا غنى للناس عنها .. بل لعلهم يرون في هذا التجسيد ابقاء على المعانى السامية في نفوس

السواد ، لأنه لا يستطيع أن يدرك هذه المعانى دون أن تليس هذا الثوب ..

هؤلاء على الأقل هم المفكرون أولو الأفق الفسيح في تصور الحياة وما تنطوى عليه ، أما المتزمتون فلا يذهبون مذهبهم ..
ألسنا قد ذكرنا ما كان من انكار بعض المسلمين لعمل عثمان بن عفان ، حين زاد في رقعة مسجد النبي ، وانتقل بعمارته من البساطة التي كان عليها في عهد النبي وفي عهد أبي بكر وعمر الى بعض الفخامة والزينة ؟

ألم نذكر كيف ضج المسلمون حين أدخلت بيوت النبي في مسجده رغم ما كان من ابداع عمر بن عبد العزيز في عمارة الحجرة النبوية وفي زينتها ؟ هذا .. ثم ان للفن الجميل مقامه السامى عند المفكرين ، قبل أن يكون له مثل هذا المقام عند غيرهم . فاذا كانت الفكرة السامية حقيقة جديدة بالخلود ، فالفن الذى يخلد هذه الفكرة في نفس الانسانية جدير بأن يشجع وألا يحارب . وهو انما يشجع لذاته . فاذا أدت آثاره الى أن تندس الى النفوس معان وثنية قامت الفكرة للقضاء عليها كما هو الشأن في الأديان التي قامت في الشرق الأوسط فانما تعلن الحرب على هذه المعانى الوثنية لا على الأثر الفنى الذى تنسب له ..

وهذا ما قام به المفكرون من قبل ، وما يقومون به اليوم .. وللجهود التى يبذلونها في هذا السبيل أثرها القيم لا ريب .. هذا الأثر الذى كفل بقاء فكرة التوحيد في نفوس السواد ، لا تطفى عليها الصورة الوثنية طغيانا يهدد كيانها أو يخشى خطره عليها .

فهرس

صفحة

تقديم ٥

الامبراطورية الاسلامية

أسباب قوة الأمبراطورية الاسلامية ٧

نظام الحكم فى الاسلام ١٥

الاشتراكية والديموقراطية فى الاسلام

الاشتراكية الاسلامية ٣٧

الاسلام والديموقراطية ٦١

الاسلام والحريات الاربع

الاسلام وحرية العقيد ٨٥

الاسلام وحرية الرأى ٩١

الاسلام والتحرر من العوز ٩٧

الاسلام والتحرر من الخوف ١٠٥

الاماكن المقدسة فى الشرق الاوسط

الاماكن الاسلامية المقدسة ١١٣

الاماكن المسيحية المقدسة ١٤٧

مبكى اليهود ١٦٥

الاماكن المقدسة ... لماذا لم تحتفظ بيساطتها ١٧٥

طبع بمطابع دار الهلال
؛

توزيع

الوكالة العربية صحافة والتشريع

« عربية »

١٠٦ شارع ٢٦ بوليوار الزمالك - القاهرة

To: www.al-mostafa.com